شريف الشوباشى



لتحيا اللغة العربية:
يسقط سيبويه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

لتحيا اللغة العربية..

يسقط سيبويه

شريف الشوباشي

الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٤

الغلاف للفنان : محمود الهندى

الإخراج الفنى والتنفيذ

صبرى عبد الواحد

«إن اللغة العربية ليست ملكًا لرجال الدين....
ولكنها ملكٌ للذين يتكلمونها جميعًا من الأمم والأجيال»

د. طه حسين

مستقبل الثقافة فى مصر

مقدمة

أصبت بصدمة فى أحد أيام مارس ٢٠٠١ عندما فتحت العدد السنوى من «الألمناك»، والذى كان صادرا قبلها بأيام قليلة. و«الألمناك» هو مطبوعة سنوية تحمل المعلومات الأساسية فى كافة المجالات وآخر الإحصائيات العالمية. ومن عادتى أن أتابع فى الألمناك آخر أرقام تعداد السكان فى دول العالم وفى أكبر المدن؛ ومعدلات النمو، وكذلك عدد أبناء كل ديانة والناطقين بأهم لغات العالم، ومعلومات أخرى كثيرة ذات فائدة كبيرة.

أما عن الصدمة، فكانت عندما جلت بنظرى فى جدول أهم اللغات المتداولة فى العالم، فلم أجد العربية فى مكانها المعتاد بهذه المطبوعة. وأعدت قراءة جدول أهم اللغات عدة مرات وأنا فى حيرة شديدة: هل هناك مشكلة أصابت نظرى ؟ أم أن اللغة العربية سقطت منهم سهوا ؟.. أم ماذا ؟

وعندما فتشت فى الجدول الموسع للغات المنتشرة فى العالم، والذى يضم نحو ٢٣٠ لغة. أدركت الحقيقة التى أثارتنى بقدر ما

أزعجتنى. فمطبوعة «الأمناك» لم تعد تعتبر العربية لغة قائمة بذاتها، على أساس أن اللغة هى أداة التفاهم اليومى بين الناس وليست أداة الدرس والعلم. وهم يعتبرون أن العربية صارت لغة لقراءة الكتب والمراجع.

أما لغة التفاهم فى العالم العربى فهى اللهجات مثل المصرية والسورية والمغربية. وباختصار فهم قرروا أن يعتبروا العربية من اللغات الميتة التى يعرفها البعض، زاد أو قل عددهم، لكنهم لا يستخدمونها فى تعاملهم اليومى.

ومن الممكن أن يكون أول رد فعل لنا أن ننتفض صائحين: «هيهات .. وموتوا بغيظكم أيها الحاقدون .. ووالله هذا لن يكون أبدا..» وأنا أقول: إن شاء الله هذا لن يكون.. لكن هذا لا يكفى. فهذه المطبوعة تعتبر من المطبوعات الجادة التى يعتد بها فى العالم، وإن كانت لا تخلو من الأغراض الخبيثة، وخاصة حيال الإسلام والعرب.

ومع ذلك، فإن كبار الكتاب والمتخصصين فى العالم، وخاصة فى الغرب؛ يعدونها من أهم مراجعهم. وبالتالى فمن الخطأ أن نأخذ موقف هذه المطبوعة من العربية بالاستخفاف والتعالى، بل ومن مصلحتنا أن نعتبره جرس إنذار علينا أن نستمع إلى ما يحمله رنينه إلينا بكل جدية وحرص حتى وإن كرهنا محتواه.

وإذا أضفنا إلى ذلك أن هناك جامعات ومعاهد لغات فى أوروبا وغيرها تقوم بتدريس اللهجات عوضا عن العربية، بل إنهم يخيرون

الطلبة الراغبين فى دراسة العربية بين الفصحى وإحدى اللهجات العامية، وهنا يتضح لنا مدى خطورة الموقف. بل إن مراكز تعليم اللغة فى البلدان العربية تفعل نفس الشىء مع الأجانب المبتدئين فى تعلم لغتنا.

والأكثر من ذلك أن هناك محاولات جادة لتقعيد اللهجات حتى تصير بمثابة لغات كاملة الأركان لها قواعد النحو والصرف الخاصة بها.

وكما نثبت فى هذا الكتاب فإن اللهجات كانت موجودة دائما. واللغة الفصحى التى نرمز إليها أحيانا بلغة سيبويه لم تكن فى يوم من الأيام لغة تفاهم وتعامل يومى، اللهم إلا فى فترة وجيزة جدا وفى رقعة جغرافية محدودة بالجزيرة العربية. فما الذى استجد حتى نتزعج اليوم من اقتحام اللهجات لحيز التعامل اللغوى بين العرب؟

الجديد هو أننا نعيش فى عصر يعرف باسم عصر العولمة. وأيا كان موقفنا من تلك العولمة، فإن لها بالتأكيد آثارا سلبية على الثقافات الإقليمية وعلى كل مقومات الحضارات ومن بينها اللغات.

والعولمة بمعناها السياسى والاقتصادى ذوبان الحدود بين الدول والتجمعات الإقليمية. لكن معناها الثقافى عميق، وقد يكون أكثر تأثيراً على الشعوب. فالعولمة قد تؤدى إلى هيمنة ثقافة واحدة على العالم، مما يترتب عليه انكماش مقومات الثقافات الاخرى التى تبلورت من خلال حقب التاريخ المتعاقبة. وبالتأكيد أن اللغة من أبرز مقومات الشخصية الإنسانية ولا بد بالتالى أن تتأثر بالعولمة.

الجديد أيضا هو أن وسائل الإعلام الحديثة جعلت أدوات التفاهم الشفهية تنافس المكتوبة، بل وتتفوق عليها أحيانا وتسحب من تحتها البساط. ففى الماضى كانت الوسيلة الوحيدة للاتصال وحفظ المعلومات هى الكتابة. أما منذ نهاية القرن العشرين فقد ظهرت الوسائل السمعية والبصرية التى جعلت للكلمة المنطوقة أهمية كبرى لم تكن لها بهذا القدر منذ عرف الإنسان الكتابة، وانطوى عندئذ عصر الثقافات الشفهية. فالتسجيلات الصوتية والصورة صارت هى الأخرى وسائل حيوية لنقل المعلومات وتخزينها كمراجع للمعرفة.

وأخيرا وليس آخرا فمن المؤكد أن هناك من لا يريد للعالم العربى أن يكون واحدا ويأمل فى قرارة نفسه تمزيق أواصر هذا العالم. وحيث أن أهم ما يربط بين العرب هو لغتهم، فإن القضاء على هذه اللغة سيؤدى إلى نهاية عالمنا العربى. وربما كان هذا هو الهدف الخفى من وراء المشروعات الغربية المطروحة على الساحة فى بداية القرن الحادى والعشرين.

وأمام هذه التحديات الخطيرة فإن اللغة العربية تمر الآن بمفترق طرق حيوى. إما أن تجدد نفسها فتبقى دائما لغة العرب المشتركة.. أو أن تتقوقع على نفسها فتواجه بالفعل خطر الزوال لحساب اللهجات كما حدث للغة اللاتينية فى القرون الوسطى الأوروبية. وهذا الاحتمال، وإن كان بعيدا، إلا أنه ليس من دروب الخيال العلمى.

والمشكلة هى أن اقترابنا من قضية اللغة مغلوط من أساسه. فهو يقوم على فرضية نعدها من المسلمات، وهى أن مشكلة اللغة تكمن فى الناطقين بها من العرب. وكل من يتصدى للحديث عن اللغة هذه الأيام يسخر من جميع من يخطئون فيها ويستهزىء بالآخرين وكأنه معصوم من الخطأ فى اللغة. فالمنطق السائد فى هذا الموضوع يشابه ما طرحه الشاعر مرسى جميل عزيز فى أغنية «سيرة الحب» التى غنتها سيدة الغناء العربى أم كلثوم عن مشكلات الحب ومن هو المتسبب فيها حيث تقول: «العيب فيكم يا فى حبايبكم.. أما الحب.. يا روحى عليه». فالخطأ إذا ليس فى الحب وإنما فى كل من يمارسونه بأسلوب خاطىء.

ولو كان من الممكن أن تنطبق هذه المقولة على الحب لأنه قيمة مجردة، فإنه لا يمكن أن تنسحب على اللغة. فاللغة كائن حى لا بد أن تتغير بتغير الوقت وأن تجارى الزمان. وبالتالى فأنا أقول إن الخطأ لا يقع بالكامل على مستخدمى العربية لكنه يقع أساسا على عاتق اللغة نفسها.

وأقول لكل من يتعذب من جراء تعلم اللغة أو يشعر بعقدة نقص لعدم إجادته العربية إجادة تامة : لا تقلقوا.. فالعيب ليس فيكم، ولكنه فى اللغة التى لم تشملها سنة التطوير. وأستطيع إنطلاقا من هذا أن أبرىء ساحة ملايين العرب بل الأغلبية الساحقة من الشعب العربى من ذنب عدم تملك ناصية لغة الضاد بكل تعقيداتها.

ومن منطلق معرفتي بمستوى التعليم في فرنسا وغيرها من الدول الغربية، أستطيع أن أجزم بأن المستوى اللغوى لخريجي الجامعات المصرية من غير المتخصصين يوازي مستوى تلميذ في بداية المرحلة الإعدادية هناك في لغته الأم.

فهل يعكس هذا نبوغ تلاميذ العالم الغربي وتخلف طلاب العلم عندنا ؟ بالتأكيد لا .. فإن المستوى الذهني متقارب بين الاثنين.. إنما المعضلة تكمن في اللغة العربية التي ترقى تعقيداتها إلى مرتبة اللوغاريتمات المنغلقة على عقول غير المتخصصين.

وفي فصول هذا الكتاب سنناقش بهدوء الأهمية الحيوية للغة في حياتنا وهل هناك شيء اسمه لغة عالمية. كما سنناقش لماذا يتعذب ملايين التلاميذ والطلاب من أجل تعلم اللغة العربية بدلا من أن يركزوا طاقاتهم في تحصيل العلوم من خلال أداة لغوية سهلة طيعة كما هو الحال بالنسبة لطلاب غالبية دول العالم الأخرى.

فعلينا ، بعيدا عن النفاق ، أن نعترف بأن طلبة المدارس يكرهون حصة اللغة العربية وينعون همها أكثر من أى مادة تعليمية أخرى. فإلى متى نجعل أطفالنا وشبابنا يتجرعون عذاب القواعد المعقدة التي عفا عليها الزمن ولم تعد تواكب العصر ؟

وتتعدى القضية تلاميذ المدارس وطلبة الجامعات حيث يكاد لا يوجد شخص في العالم العربي لا يخطيء في اللغة. وحتى الذين يتباكون على اللغة ويتهكمون على أخطاء غيرهم غير قادرين على القراءة والكتابة دون خطأ باستثناء بضع مئات معدودة من المتخصصين في العالم العربي كله.

وهذه اللغة العظيمة التى نزل بها إعجاز القرآن الكريم، والتى فتحت للعرب آفاقا رحبة للتطور الفكرى والإبداع الفنى أصبحت، مع مرور القرون، قيدا يكبل العقل العربى ويغل طاقاتنا الخلاقة. فاللغة تحولت إلى إسار يخنق أفكارنا ويلجمها. وهى تسهم للأسف فى حرماننا من الانطلاق إلى الآفاق الرحبة التى يفتحها العلم الحديث ووسائل المعيشة المواكبة للتطور العلمى. وباختصار فإن اللغة أصبحت سجنا يُحبس العقل العربى بين جدرانه الحديدية بإرادته المستكينة.

فالعربية هى اللغة الوحيدة فى العالم اليوم التى لم تتغير قواعدها الأساسية منذ ١٥٠٠ سنة كاملة. قد يرى البعض فى ذلك رسوخا واستمرارية ودليلا على رصانة اللغة. لكنى أرى فيه جمودا وتحجرا ينعكس سلبا على العقل العربى. فاللغة كما قلنا كائن حى، يولد وينمو ويتطور ويشب وينضج ثم يشيخ، وكثيرا ما يموت. ودورنا هو إعادة الشباب إلى لغتنا وإجراء عمليات تجميل لإزالة التجاعيد التى تراكمت بعد قرون من الممارسة الناجحة. فالجمود فى اللغة يؤدى حتما إلى جمود فى العقل. والتحجر فى اللغة يؤدى إلى تيبس الأذهان.

وفى الماضى كان النوابغ قادرين على معرفة اللغة والتراث والحديث والتعمق فى الوقت ذاته فى علوم مثل الفلك والكيمياء والرياضيات. أما اليوم، ومع الاتساع اللامتناهى فى المعارف، فإن الإنسان العربى يجد نفسه أمام خيار صعب: إما أن يكرس حياته لدراسة اللغة والتراث، أو أن يتخصص فى فرع من فروع العلم والمعرفة الحديثة.

وفى الحالة الأولى، فإنه سيكون ضليعا ولا شك فى العربية لكنه سيكون شبه منقطع عن العالم ومحبوسا فى دائرة مغلقة تجعله خارج حياة القرن الحادى والعشرين. وفى الحالة الثانية سيكون مواكبا للتطور الحضارى الهائل فى العالم أجمع، لكن معرفته بالعربية ستكون محدودة وسطحية إلى حد بعيد.

وسنعقد فى فصول هذا الكتاب مقارنة سريعة بين العربية واللغات الحية الأخرى لنتبين صدق هذه الحقيقة. وسنشعر من هذه المقارنة بين العربية بقواعدها الجامدة مع اللغات الأخرى التى تستخدمها الشعوب المتقدمة أننا كمن يمتطى جمالا بالطريق السريع، فى الوقت الذى يركب فيه غيرنا سيارات تنقلهم بأقصى سرعة إلى ساحات التقدم. فتحصيل العلم من أجل تطبيقه لنفع الإنسان أصبح الشغل الشاغل للمجتمعات المتحضرة. لم يعد هناك فراغ يجعل الناس تستلذ صعوبة القواعد وتعقيد الكلمات كما هو الحال عندنا، حيث ينتشى البعض وتنتفخ أوداجهم سرورا عندما يصححون خطأ لغويا، ويتلون قاعدة متقعرة، لاقيمة لها إلا أنها من وضع النحاة الأقدمين.

هذا فى حين أن المجتمعات المتقدمة فى صراع مع الزمن وليست على استعداد لإضاعة وقتها الثمين فى الكلمات الرنانة الفارغة من أى محتوى وفى القواعد المعقدة والجناس والطباق والمقابلة والاستعارة المكنية وغير المكنية، وما شابه ذلك من محسنات بديعية حتى الأدب العالمى أصبح يعتمد على المعنى والمضمون وليس على زخرف اللغة والتلاعب بالألفاظ.

وسوف نتعرض أيضا بمعيار العقل إلى قضية حساسة هى علاقة اللغة بالدين، وهل العربية لغة «توقيفية» أى هابطة من السماء، كما يريد البعض، أم لغة «اصطلاحية»، أى من صنع الإنسان، كما يريد المنطق ؟ مع أن الكل يعلم أن العربية نشأت واستوت كمنظومة لغوية متكاملة فى العصر الجاهلى. فهى إذن تنتمى ـ كلغة ـ إلى العصر الجاهلى، لكن الله سبحانه وتعالى تخيرها لتنزيل رسالته إلى البشر، فسما بها إلى أعلى مراتب الإعجاز.

* * *

وفى كتاب «الداء العربى» حاولت أن أضع أصابعى على بعض أسباب تخلف العالم العربى عن ركب الحضارة العالمى. وكنت أنوى أن أخصص فصلا عن اللغة بعنوان «رسالة إلى حراس الضاد» أشدد فيه على ضرورة الثورة على قواعد اللغة التى لم تعد تواكب زماننا. فإنا أعتبر أن اللغة هى أحدى عناصر تخلف العالم العربى وأن تحجر البعض فى تناول قضية اللغة من أسباب عملية إجهاض النهضة الذى قمت بتحليله فى كتاب «الداء العربى». لكننى وجدت أن قضية اللغة اكبر من أن تعرض فى فصل داخل كتاب. فهى فى حاجة إلى مؤلف مستقل يحلل الظاهرة ويحيط بها من جوانبها المختلفة.

ويأتى هذا الكتاب تكملة لما سعيت إليه فى «الداء العربى». فقد آن الأوان أن ندرك أن اللغة أصبحت أحدى العقبات فى سبيل

انطلاق العقل العربى. وآن الأوان أن نقول هذا الكلام بشجاعة فى وجه من يريدون الحجر على عقولنا وترويع كل من ينادى بالتحديث.

* * *

وبعيد عن ذهنى تماما هجر اللغة العربية لحساب اللهجات العامية أو استخدام الحروف اللاتينية وما شابه ذلك من اقتراحات طرحها بعض الذين أدركوا نكوص الفصحى عن التعبير عن واقعنا الحالى. فالذين يدعون إلى وأد العربية لا يدركون تبعات مطلبهم. فاللغة العربية أنتجت بعضا من أهم الإبداعات الإنسانية ومن يدرس تاريخ الآداب العالمية لا يسعه إلا أن يتوقف بإجلال أمام أشعار المتنبى وأبى العلاء وأبى نواس ونثر أبى حيان التوحيدى، كما لا يملك إلا أن ينحنى تحية لأدب نجيب محفوظ.

وترك اللغة العربية معناه ببساطة محو كل هذا التراث العظيم من الذاكرة الجماعية للشعب العربى. هذا عن التاريخ. أما عن الحاضر فإن معناه تفتيت الأمة العربية وشرذمتها إلي كيانات مستقلة وربما متنافرة. فإذا نظرنا إلى الوطن العربى اليوم نجد أن أقطاره تختلف فى السياسة وتتنافر فى الاقتصاد وتتنافس فى التجارة. الجانب الوحيد الذى يجمع بين العرب هو الثقافة واللغة. فإذا سحبنا البساط من تحت هذا الجانب فإننا نهدم صرحا يُظل كافة العرب وكأننا نهدم المعبد فوق رؤوسنا.

ولهذه الحيثيات فإنه لا يمكننى أن أقف مع الداعين إلى هدم العربية من أساسها. لكننى أطالب بإعادة النظر فى القواعد الأساسية للغتنا لتصبح أداة فعالة لتفجير طاقات العقل العربى المحتبسة فى هيكل اللغة المقدس.

وأنا على ثقة من أننى أترجم المشاعر الدفينة فى نفوس ملايين العرب وأنا أهتف قائلا: **يسقط سيبويه**.

* * *

بـرج بابل

يخطىء كثيرا من يتصور أن قضية اللغة من القضايا الهامشية أو الثانوية التى يواجهها المجتمع، أو حتى أنها مجرد قضية هامة من بين قضاياه المتعددة. وقد يرى البعض أن الأجدى التعرض للقضايا الاقتصادية أو الاجتماعية أو غير ذلك من الموضوعات الحيوية التى تمس الحياة اليومية للإنسان العربى. أما قضية اللغة فهى ترف ينبغى أن نتركه للمتخصصين وعلماء الفقه اللغوى.

فالحقيقة أن اللغة قضية حيوية ستسهم بشكل حاسم فى تحديد الهوية العربية وتطور ثقافتنا فى القرن الحالى. كما أنها ملك لكل من يستخدمها وليست حكرا على علماء اللغة. وسنحاول فى هذا الفصل إثبات أهمية اللغة فى حياة الإنسان منذ بدء الخليقة وكيف كانت عنصرا مؤثرا فى تطور المجتمعات وتشكيل الوجدان الجماعى لها.

وهناك بين اللغة والفكر علاقة جدلية. فاللغة وعاء الفكر، والفكر مضمون اللغة. والإنسان لا يستطيع أن يفكر بطريقة مجردة

وإنما يفكر من خلال كلمات وتركيبات لغوية تتفاعل فى ثنايا عقله. فنقل الأفكار يكون دائما باللغة سواء عن طريق الكلام أو الكتابة.

أما وسائل التعبير الأخرى مثل الرسم والموسيقى مثلا فتنقل شحنات من الأحاسيس والمشاعر، لكن كل هذه الوسائل التى لا تعتمد على اللغة عاجزة عن إيصال الفكر من إنسان إلى آخر. وقد ظل الإنسان لمئات الآلاف من السنين أقرب إلى الحيوان نظرا لعدم تبلور أداة للتفاهم بينه وبين الآخرين من بنى جنسه.

وعلماء الأنثروبولوجى يؤكدون العلاقة المتوازية بين تطور اللغة وتقدم المجتمعات الإنسانية. فكلما استطاع الناس أن يتفاهموا فيما بينهم، كلما نجحوا فى تطوير حياتهم ومستوى معيشتهم.

والعكس صحيح. فقد ثبت دائما أن التخلف الفكرى والإفلاس الحضارى يؤديان بالضرورة إلى اضمحلال اللغة. والتخلف اللغوى يعيق العقل عن التطور الحضارى ويؤدى إلى تحجيم للإدارك والخيال اللازمين للتقدم. فالفقر اللغوى كثيرا ما يعكس فقرا معنويا وحتى ماديا للمجتمع.

والتعريف الشائع للإنسان هو أنه حيوان ناطق. فالفارق الرئيسى بين الإنسان والحيوان هو النطق أى اللغة. الحيوان لا يستطيع التعبير عن نفسه ولا يستطيع أن يورث خبرته وتجاربه لمن بعده. على عكس الإنسان الذى ينقل كل معارفه وعلمه عن طريق اللغة.

وهناك نظريات عديدة فى أصل اللغات ونشأتها وتطورها عند الإنسان البدائى الذى ظل ملايين السنين حتى توصل إلى لغة راقية

تعبر عن مشاعره ومتطلباته. لكن علماء الانثروبولوجى يرجحون أن الإنسان الأول كان يدرك الأشياء فى البداية كصور مجسدة فى عقله، فيفكر مثلا فى أسد أو نهر فيتمثل كل منهما أمامه. وظل كذلك حتى بدأ يصدر أصواتا للتعبير عن تلك الأشياء التى يريد استحضارها ونقلها لغيره. ومن هنا بدأت اللغة.

وظل التفكير الإنسانى قاصرا وأقرب إلى تفكير الحيوان طالما لم تتكون لغة التحاور. فالتفكير فى الأشياء المادية المحسوسة والأحاسيس الغريزية مثل الخوف والجوع يساعد على خلق لغة بدائية تتكون من أصوات ثم كلمات مقتضبة للتعبير عنها. لكن التطور الذى عرفه الإنسان بعد المراحل الأولى من وجوده على الأرض كان يستلزم وسيلة أكثر تعقيدا للتعبير والتفاهم. وبدأت اللغات تنمو وتتطور وتجسد أفكارا مجردة. وبالتوازى مع تطور وسيلة التعبير عما يجيش فى صدره من أحاسيس ومشاعر انفتحت أمام الإنسان آفاق التقدم والحضارة.

* * *

وكانت الكتابة من أهم الثورات الثقافية التى عرفها تاريخ البشرية، إن لم تكن أهمها على الإطلاق. بل إن التاريخ نفسه يبدأ بالكتابة أى بتثبيت اللغة الشفهية وتخطيها لحاجز الزمن. والخط الفاصل بين ما يسمى بعصور ما قبل التاريخ وعصور التاريخ هو اختراع الكتابة. وعلى الرغم من اختلاف العلماء حول الحضارة

التى كان لها فضل اختراع الكتابة أهى المصرية أم السومرية ؟ إلا أن الإجماع على أن بدء التدوين كان لحظة تاريخية فاصلة، جعلت الإنسانية تقفز قفزة عملاقة إلى الأمام.

قبل ذلك كانت المعلومات والخبرات تنتقل كلها شفاهة من جيل إلى جيل. وهذا التوارث السمعى من شأنه أن يطمس الثقافة ولا يسمح بوجود دين أو معرفة حقيقية. فقوام الأديان السماوية كلها هى الكتب التى تحمل رسالة كل دين وليس المنقول عن الأنبياء أنفسهم بالسمع جيلا بعد جيل. فالتوراة والإنجيل والقرآن هى الأسس التى شيدت عليها الديانات السماوية الثلاث. وكان القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد المحفوظ عند العرب بعد انتقال سيدنا محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وإذا سألنا أنفسنا ما الذى يربطنا بماضينا وبتراثنا الثقافى ؟ فإن الأجابة هى ببساطة : اللغة. فاللغة هى الوسيلة الأساسية لمعرفة كل ما حدث قبل وجود جيلنا فى الدنيا. فمعلوماتنا عن الماضى نستقيها من الكتب التى تركها السلف كما أن التراث والأدب والفكر مرهونون كلهم باللغة التى دونوا بها ونقرأها اليوم كما قرأها من عاشوا قبلنا.

هناك طبعا الآثار الباقية مثل الأهرام وأبى الهول والمساجد والقصور والقطع الأثرية مثل التماثيل والأوانى والحلى وغير ذلك. لكن كل مخلفات الماضى البعيد والقريب تفقد معناها فى غياب الفهم اللغوى. فالآثار الفرعونية القديمة مثلا ظلت أحجارا صماء لم تعرف

قيمتها ومعناها أجيال متعاقبة من المصريين لقرون طويلة بسبب عدم فهم اللغة الهيروغليفية المنقوشة عليها. وكان العرب يفتون فتاوى غريبة حول بناء الأهرام. فصاحب المعجم القاموس يقول مثلا: «إن الهرمين بناءان أزليان بمصر، بناهما إدريس عليه السلام، لحفظ العلوم فيهما من الطوفان، أو بناء سنان بن الشلشل».

ووصل الأمر إلى أن الخليفة المأمون عندما قدم إلى مصر عام ٨٣٢ م أمر بتفكيك أحجار الأهرام بهدف استخدامها فى بناء منشآت جديدة. ولولا ثقل الأحجار وأحجامها الضخمة، التى حالت دون تنفيذ أوامر المأمون، لفقدت مصر والعالم أجمع إحدى عجائب الدنيا السبع القديمة. بل إن هرم خوفو هو الوحيد الباقى إلى يومنا هذا من عجائب الدنيا السبع القديمة.

أما الست الأخر وهى فنار الإسكندرية، وحدائق بابل المعلقة، وعملاق رودس، وتمثال زيوس، ومعبد أرتميس (حامية الأرض عند الرومان) وضريح هاليكارناس، قد تهدمت جميعا بفعل الزلازل والحرائق والعوامل الطبيعية الأخرى.

فالهرم الأكبر إذا هو البناء الوحيد من عجائب الدنيا السبع الأصلية الذى تحدى الزمن وانتصر على كل عوامل الهدم، مما جعل الشاعر يقول عنه:

خليلىّ ما تحت السماء بنية   يشابه بنياها بنا هرمى مصر

بناء يخاف الدهر منه وكل ما   على الأرض يخشى دائما سطوة الدهر

وهذا الصرح العظيم الذى يعتبر اليوم أهم بناء على وجه الأرض ويوضع على رأس قائمة التراث العالمى الواجب حمايته والذى تحتضنه منظمة اليونسكو الدولية كاد يزول بسبب الجهل باللغة.

وعندما نجح شامبليون فى فك طلاسم الهيروغليفية فى بداية القرن التاسع عشر تكشفت أسرار الحضارة المصرية القديمة التى يعتبرها العالم أجمع اليوم أم الحضارات الإنسانية كلها. وقد كانت اللغة هى المفتاح الوحيد لفهم قيمة الأحجار الصماء التى تركها أجدادنا فى عصور الفراعنة.

ولو افترضنا جدلا أننا فقدنا فجأة معرفتنا بالعربية فإننا لن نستطيع قراءة القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة. وسننقطع بذلك عن ديننا. كما سنفقد أى اتصال بتراثنا الأدبى والثقافى العظيم. فما الذى يربطنا بعظماء مثل المتنبى أو البحترى أو حتى أحمد شوقى وطه حسين ؟ إنها اللغة أيضا.

ولو لم نكن نعرف العربية لما استطعنا أن نفهم ما أبدعه هؤلاء ولصرنا عاجزين عن الارتباط بماضينا. والانقطاع عن الماضى هو أكبر كارثة يمكن أن تواجه شعبا من الشعوب. والوصل المطلوب بالتراث اليوم يمر بتطوير سريع وجرىء للغة وليس بالتمسك بها كما هى بغباء قد يؤدى إلى أخطر النتائج على العربية.

* * *

وبالإضافة إلى دورها الأساسى كوسيلة وحيدة لحفظ التراث وانتقاله عبر الأجيال، فإن اللغة هى أحد أهم العناصر المكونة

للحضارة وللهوية الإنسانية فى كل مكان. وأول اتصال بين إنسان وآخر يتم عن طريق اللغة. ويحتاج الزعماء ورجال السياسة والاقتصاد إلى مترجمين للتفاهم. ولولا هؤلاء المترجمون الذين يجيدون أكثر من لغة لكان التفاهم صعبا للغاية إن لم يكن مستحيلا. فاللغة هى الأداة الأساسية للتفاهم. لكنها أيضا الوعاء الذى يتبلور فيه فكر الإنسان ورؤيته للحياة. وبالتالى فإن اللغة هى العنصر المشكل للثقافة وللفكر والفلسفة والآداب.

وبالإضافة إلى هذا فإن اللغة هى أداة التفاهم الأساسية بين أبناء البشرية. وقد أثبت القرآن الكريم الأهمية الحيوية للغة حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (سورة إبراهيم . ٤) أى أنه لو تحدث الرسل بلغة مختلفة أو غريبة عن قومهم ما أوضحوا لهم وما بينوا لهم ما كلفوا بنقله من رسائل سماوية. ويؤكد القرآن الكريم هذا المعنى عندما يقول: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الأَعْجَمِينَ * فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء . ١٩٨ و١٩٩).

ثم هذه الآية التى توضح هذا المعنى بجلاء :﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًا لَقَالُوا لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ (فصلت . ٤٤). ومعنى هذا بوضوح أن اختيار الله سبحانه وتعالى للعربية جاء بناء على لغة القوم الذى أنزل عليهم الكتاب.

والواقعة الوحيدة المذكورة فى القرآن عن تحدث الله سبحانه وتعالى إلى بشر كان بطلها النبى موسى. ويقول كتاب الله :﴿فَلَمَّا

أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ (طه ١١.١٢.١٣) وباقى الآيات معروفة فى سورة طه. ولنا أن نتساءل : بأى لغة تحدث الله إلى عبده موسى ؟

فموسى تربى فى مصر وعاش بها وكان يتحدث اللغة المصرية القديمة. أما العربية فلم يكن لها وجود على الأرض آنذلك. فموسى عاش قبل خاتم الأنبياء بسبعة عشر قرنا. ويجمع علماء اللغة على أن لغة الضاد لم تتخذ ثوبها الذى نزل به القرآن إلا قبل قرن أو قرن ونصف على الأكثر قبل الدعوة.

ومن المسلم به أن موسى فهم كل كلمة مما قاله ربه. فقد سأله: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ (طه ١٧) فأجابه النبى كما هو وارد فى سورة طه. ثم ألقى الله بأوامر محددة حين قال : ﴿أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ (طه ١٩) ثم: ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ (طه ٢١) ثم: ﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى﴾ (طه ٢٢) ثم : ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ (طه ٢٤). وقد أجاب موسى على خالقه ونفذ كل هذه الأوامر على الفور أى أنه فهم تماما اللغة التى نودى بها. بل إنه أجاب على الله بالكلام فقال من بين ما قال: ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ (طه ١٨). كما توجه إلى ربه بالرجاء فى الآيات من ٢٥ إلى ٣٥ .

وإذا أعملنا عقلنا لوجدنا أن هناك احتمالين من الصعب أن يكون لهما ثالث وهما:

إما أن يكون الحوار مع موسى باللغة الوحيدة التى يفهمها وهى المصرية القديمة.

أو أن يكون الله قد أوحى إليه المعانى دون اللجوء إلى لغة معينة.

لكن المنطق يقول أن موسى حتى فى الحالة الثانية قد تحدث بلغته الأم وهى المصرية القديمة.

وفى كل الأحوال فإن العبرة أن الله تحدث إلى موسى بأسلوب يفهمه ويدرك معانيه ولو تحدث إليه بالعربية مثلا لما فهم موسى وما أستطاع أن يطيع الأوامر.

* * *

وقد لعبت اللغة منذ فجر التاريخ دورا محوريا فى نسج الضمير الجماعى للمجتمعات. لكنها ظلت أداة استخدام داخلية أى بين أبناء المجتمع الواحد الذين يتحدثون نفس اللغة. فكانت أهمية اللغة كبيرة فى تماسك المجتمعات وربطها بهيكل بنيوى واحد فى أسلوب التفكير. ولم تكن المجتمعات فى السابق متداخلة ولم يكن السفر والتنقل متاحين بسهولة كما هو الحال اليوم. فظلت لغة كل مجتمع هى التى تتسيد وحدها الفضاء الجغرافى الذى يضم كل أفراده. وكان أبناء المجتمع الواحد لا يعرفون إلا لغة واحدة للتفاهم ولا يدور بخلدهم أن يتعلموا لغة أخرى إلا باستثناءات نادرة.

أما اليوم فقد تغيرت الصورة جذريا وأصبحت اللغة أداة تفاهم بين المجتمعات المختلفة. ولم يعد من الممكن فى بداية القرن الحادى والعشرين على أية دولة فى العالم أن تعيش يوما واحدا دون الاتصال بدولة أخرى تتحدث لغة مختلفة عنها.

وكان من نتائج ذلك أن أصبحت مهنة الترجمة والتى كانت موجودة منذ قديم الزمان من أهم وأخطر المهن فى العالم. وقد أصبحت أيضا من أكثر المهن المجزية من الناحية المادية، حيث يتقاضى المترجم الفورى فى المؤتمرات الدولية مكافأة يومية مرتفعة نظرا لأنه من أهم مقومات نجاح الاجتماعات، ولولاه لما حدث تفاهم بين الحاضرين.

وقد أدرك الإنسان منذ أقدم العصور أن اللغة هى أداة توحيد وانسجام ووفاق. وتروى التوراة قصة تؤكد أهمية اللغة فى ترابط المجتمعات، فتقول إن الناس كانوا فى بدايات البشرية قوما واحدا يتكلمون لغة واحدة. ثم ظهر فى بابل ملك طاغية يدعى نمرود تصور أنه قادر على مناطحة الآلهة.

وشرع هذا الملك فى بناء برج شاهق يرتفع به إلى عنان السماء حتى يصل إلى الآلهة ويتحداهم. فقد كان هذا الملك يعتبر نفسه أقوى من الآلهة التى فى السماء وأراد أن يثبت ذلك لقومه فما كان من الخالق إلا أن جعل العاملين فى بناء البرج يتكلمون لغات مختلفة. وعلى الفور اختفى التفاهم فيما بينهم ودبت الخلافات وأخذوا يتشاجرون بدلا من العمل فى بناء البرج ولم يستطيعوا

بالتالى إكمال البناء وأخفق نمرود فى وضع مشروعه المجنون موضع التنفيذ.

وخلاصة هذه القصة هى أن اللغة هى أساس التفاهم بين الناس وأن وجود لغات مختلفة جعل الناس عاجزين عن السعى فى مشروع مشترك وهو بناء برج بابل.

* * *

وبرغم هذه القصة الواردة فى التوراة فمن المؤكد أن وجود لغات مختلفة هى نعمة من نعم الله. فكل لغة تعبر عن ثقافة بذاتها ورؤية للحياة تختلف عن غيرها. كما أنها تعكس منظومة فكرية تثرى حضارات الإنسانية. وهناك آلاف اللغات التى اندثرت تماما ولم يعد علماء اللغات يعرفون عنها شيئا. ولا يستطيع علماء اللغة إحصاء عدد هذه اللغات لكنها اختفت عادة لحساب لغات أخرى أكثر تعبيرا عن احتياجات المجتمع. فكأن اللغات القديمة مثل السمك فى الماء يبتلع الكبير الصغير.

حتى فى الجزيرة العربية خلال الجاهلية كانت هناك عشرات اللهجات المختلفة إلى أن جاء القرآن فانزوت كلها ولم تبق إلا لغة قريش أداة للتفاهم بين العرب.

وهناك لغات اندثرت لكنها لا زالت معروفة للمتخصصين ولعل أشهرها اللاتينية التى تعد اللغة الأم لعدة لغات حية من أهم لغات عالم اليوم مثل الفرنسية والإيطالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية. كما أن هناك اللغة اليونانية القديمة التى أبدع بها

هوميروس وأفلاطون وأرسطو وسوفوكليس وغيرهم ممن غيروا نظرة الإنسان للحياة فى القرون السابقة على ظهور المسيح.

وكان لكل حضارة من تلك الحضارات واللغة المعبرة عنها دور حيوى فى تقدم الإنسانية ورقيها ووصولها إلى ما هى عليه الآن بفعل تراكم المعارف. ولولا اللغة لما كان ذلك متاحا.

* * *

ووعيا منه بخطورة اللغة فى العلاقات بين الشعوب طرأت على ذهن طبيب بولندى فى نهاية القرن التاسع عشر فكرة عبقرية. فقد وضع لغة جديدة تماما هى مزيج من أهم لغات العالم أطلق عليها اسم " إسبيرانتو" ونشرها عام ١٨٨٧ باسم اللغة العالمية.

لكن الفكرة سرعان ما أهملت وسقطت فى طى النسيان. فلم يكن وراءها ثقافة ولا دولة قوية تحميها.

وعندما أفاق الناس من صدمة الحرب العالمية الثانية المروعة رأى البعض ضرورة البحث عن وسائل لنزع فتيل المواجهة بين أبناء البشرية وأرادوا مد جسور التفاهم بين الناس، فعادت الروح بعض الشىء إلى الإسبرانتو على أساس أنه إذا تحدثت كل شعوب العالم لغة واحدة فسوف يؤدى ذلك إلى إذابة العوائق النفسية ونزعات الشر الكامنة فى نفس الإنسان تجاه من يعتبرهم غرباء عنه.

لكن هذه المحاولة باءت بالفشل كما أن فكرة إقامة حكومة واحدة للعالم هى حلم من الأحلام الوردية التى لا يمكن تحقيقها فى المستقبل المنظور. فحتى دول الاتحاد الأوروبى لا زالت عاجزة

حتى الآن برغم تقدمها فى الوحدة فيما بينها عن إنشاء نوع من أنواع الحكم الفوقى تخضع له كل الدول الأعضاء. وكان الرئيس الفرنسى الأسبق فاليرى جيسكار ديستان يحلم بأن يكون أول رئيس للولايات المتحدة الأوروبية. لكن هناك أفكار مثل الإسبرانتو تسبق عصرها وقد تتحقق فى المستقبل البعيد عندما تتغير ظروف المجتمعات البشرية.

* * *

وإذا أخذنا مثالا آخر من القرن العشرين يعكس إدراك الإنسان لأهمية اللغة نجد أن الطاغية النازى أدولف هتلر (١٨٨٩ - ١٩٤٥) كان يحلم بتوحيد كل الناطقين بالألمانية فى أوروبا. وقد قام بغزو النمسا وأهلها يتحدثون الألمانية. ثم غزا المناطق البولندية الناطقة بالألمانية وبعد ذلك منطقة السوديت جنوب تشيكوسلوفاكيا السابقة، وسكانها أيضا كانوا من الناطقين بالألمانية.

ومن يتابع تحرك الجيش النازى فى نهاية الثلاثينات من القرن العشرين يتضح له مخطط هتلر الذى كان يقوم فى أساسه على اللغة التى كان يعتبرها أحد المكونات الأساسية للجنس. فخريطة التحرك كانت مطابقة لخريطة المجتمعات التى تتخذ من الألمانية لغة للتفاهم.

وكان لهتلر بطبيعة الحال أطماع توسعية واستعمارية أدت إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية. لكن فكرته الرئيسية كانت قيام امبراطورية تضم كل أبناء العنصر الألمانى الناطقين بالألمانية. وقد

فرض على الحلفاء فى اتفاقية ميونيخ عام ١٩٣٨ ضم منطقة السوديت بجنوب تشيكوسلوفاكيا السابقة على أساس أن أهلها يتحدثون الألمانية.

مثال آخر من العالم العربى: فإذا قمنا بتحليل حقبة الاستعمار من منظور لغوى يتضح لنا أن اللغة لعبت دورا هاما لا زال العرب واقعين تحت تأثيره إلى بداية القرن الواحد والعشرين.

وقد تقاسم الهيمنة على العالم العربى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر دولتان أوروبيتان لكل منهما مفهومها الخاص عن رسالتها الثقافية واللغوية. فانجلترا كانت تهدف من فرض سيطرتها على المستعمرات الاستفادة المادية والانتفاع بخيرات الأراضى التى احتلتها إلى أقصى حد ممكن. ولم تسع بريطانيا لفرض لغتها أو ثقافتها على الدول التى استعمرتها فى العالم العربى وعلى رأسها مصر.

أما فرنسا فكان لها هاجس آخر بالإضافة إلى الاستفادة المادية. فقد كانت حريصة على نشر ثقافتها ولغتها فى الدول العربية والأفريقية وغيرها التى وقعت تحت براثنها. وكانت السلطة الفرنسية تفرض لغتها فى المدارس وتحارب العربية أو تسعى لتقليصها بقدر المستطاع، وجعلها لهجة للتفاهم البدائى بين أبناء الشعوب الخاضعة لها. وكان أبناء الجزائر وتونس والمغرب يتعلمون فى المدارس أن أجدادهم هم الغاليون، وهؤلاء بطبيعة الحال هم أجداد الفرنسيين وحدهم.

فرنسا إذا لم تكتف بالسيطرة على الأرض، لكنها أرادت السيطرة على العقل. واكتشفت أن الهيمنة العقلية تمر من خلال الحالة اللغوية. ومن الواضح ، برغم سوء نواياها ، أنها كانت على صواب.

وكانت نتيجة السياسة اللغوية التى انتهجتها فرنسا أن شعوب المغرب العربى لا زالت إلى الآن مرتبطة ارتباطا ثقافيا وثيقا بفرنسا ويقترب منهاج تفكيرها من المنهاج الفرنسى أكثر منه إلى العربى. صحيح أن أبناء الجيل الحالى يبذلون جهودا جبارة للتخلص من سيطرة التأثير الفرنسى والتوصل إلى صيغة يلتحمون بها بثقافتهم العربية الأصيلة لكن الأثر الثقافى الذى تركته سنوات الاستعمار لا زال شديد الوطأة على العقل المغاربى.

ومع ذلك فإنه من المؤكد أن تأثر الشعوب المغاربية بالفرنسية قد أفادها كثيرا بعد مرحلة الاستعمار وانعكس فى الانتعاشة التى تعيشها هذه الدول منذ نهايات القرن العشرين.

والغريب أن المفهومين الفرنسى والانجليزى لقضية الثقافة واللغة لا زالا ينعكسان إلى يومنا هذا على موقف الدولتين من الجاليات الأجنبية المقيمة فيهما. فانجلترا تتعامل مع الجاليات الأجنبية بها وكأنها وحدات مستقلة بثقافتها ولغاتها طالما أنها تصب فى نفع الاقتصاد الانجليزى ولا تعكر صفو الأمن العام. فالهنود مثلا لهم أحياؤهم التى يعيشون فيها بلندن، وكأنهم فى بومباى أو نيودلهى.

أما فرنسا فترفض هذا المنطق بشدة وتسعى إلى إيجاد مجتمع متجانس فى الثقافة واللغة والمزاج وتنظر بعين القلق إلى أى محاولة للتميز الثقافى أو اللغوى من قبل أى جالية أجنبية.

وكان هذا المفهوم هو السبب فى انفجار قضية الحجاب فى المدارس الفرنسية منذ الثمانينات من القرن العشرين.

* * *

ولعل كل هذه المواقف تصب فى قالب واحد وهو تأكيد الأهمية الحيوية للغة، ووعى المجتمعات المتقدمة بالدور الخطير الذى يمكن أن تقوم به سلبا أو إيجابا.

ويتزايد إحساس الإنسان بأهمية اللغة عندما يزور بلادا غريبة لا يجيد لغتها فيحس وكأنه تائه وضائع تماما ويشعر بالعجز عن الاتصال بالمحيطين به وقد يتعرض لمواقف صعبة أو لأخطار بسبب جهله باللغة.

ومع تسليم الجميع بأهمية اللغة على مستوى الإنسانية، فإ
المجتمعات العربية تضع لغة الضاد فى مكانة خاصة لا تطالها أى لغ
أخرى بل لا تقترب منها. فاللغة منذ العصر الجاهلى تلعب دورا محور
فى حياة العرب، كما كانت تسهم فى تحديد العلاقات بين الناس ب
وفى تحديد طبقات المجتمع جنبا إلى جنب مع شرف النسب ووف
المال. ولن أطيل فى وصف الأهمية التى كان يحظى بها الشعراء أو
والخطباء فى المرتبة الثانية. ولم يكن الأمراء يستنكفون رواية الشع
على عكس كل المجتمعات الأخرى التى كانت ترى الفن والأدب هواية

تجوز إلا للعامة. فامرؤ القيس وأبو فراس الحمدانى والمعتمد بن عباد كانوا من أمراء قومهم على سبيل المثال لا الحصر.

بل إن هناك خليفة كان يقرض الشعر بنفسه وهو يزيد بن معاوية بن أبى سفيان ثانى خلفاء بنى أمية. وينسب إليه بيت من أشهر الأبيات التى يستدل بها على البلاغة العربية يقول فيه:

وأمطرت لؤلؤا من نرجس وسقت ... وردا وعضت على العناب بالبرد

ومهما كانت أهمية اللغة بالنسبة لكافة شعوب العالم منذ قديم الأزل، فلا يوجد شعب يعشق لغته ويبجلها مثل الشعب العربى. فالعربى ينتشى لحسن اللغة بقدر ما يطرب لنغمات الموسيقى. واللغة تحكم سيطرتها السحرية على العقل العربى بصورة غير مسبوقة وغير موجودة فى كافة ثقافات العالم.

ويلخص فيليب حتّى افتتان العرب بلغتهم فى كتاب «تاريخ العرب» (دار الكشاف للنشر والطباعة. بيروت ١٩٦٥) حيث يقول:

«وقلّ أن تجد بين أمم الأرض شعباً كالعرب فى شدة إعجابهم بالأدب وتأثرهم بالكلام الأنيق الذى يلقى فى مجالس المخاطبة. ولهم شغف وهيام كبيران بجمال اللغة سواء رأوها مكتوبة أو سمعوها بآذانهم حتى تمتعت اللغة العربية بما لم تتمتع به لغة أخرى من الاستيلاء على عقول الناس والسيطرة على أفئدتهم. بالرغم من أن هذا الأدب يرد أحياناً فى لغة منمقة معقدة يفهمون بعضها ويغلق عليهم البعض الآخر..»

* * *

هل هناك لغة عالمية؟

طوال حقب التاريخ المتعاقبة كانت الأهمية التى تحظى بها اللغة انعكاسا لقوة الدولة أو الحضارة التى تستخدمها. حتى في الجزيرة العربية خلال العصر الجاهلى كانت لغة قريش هى أهم اللغات نظرا لأهمية مكة كمركز للتجارة والحجيج ولموقعها من طرق التبادل التجارى. وظلت كذلك حتى جاء القرآن الكريم ليؤكد تفوق لغة قريش ويحيل إلى طى النسيان كل اللغات الأخرى التى كانت متداولة بين القبائل فى الجزيرة.

والسؤال الذى يثير بعض الجدل فى مجال اللغات اليوم هو : هل هناك لغة عالمية ؟ أى هل هناك لغة يمكن للإنسان استخدامها فى أى مكان فى العالم ويكون مفهوما من الجميع ؟ فى بداية التسعينات كتب رئيس تحرير صحيفة الوول ستريت جورنال الأمريكية مقالا يقول فيه حرفيا : «اللغة العالمية هى الانجليزية».

ولا شك أن هناك مغالاة فى مقولة رئيس تحرير هذه الصحيفة برغم الأهمية الكبرى التى تحظى بها اللغة الانجليزية أو بمعنى

أدق اللغة الأمريكية. فالمعنى الدقيق لكلمة لغة عالمية أنها لغة يفهمها كل الناس فى العالم. وهذا بعيد جدا عن الانجليزية وعن أى لغة أخرى فى أى عصر من العصور. وعدد المتحدثين بالانجليزية اليوم كلغة أولى لا يتعدى ٣٤١ مليونا كما يتضح من الجدول التالى:

عدد الناطقين بأهم لغات العالم كلغة أم

اللغة	العدد بالمليون
الصينية (مندارين)	٨٧٤
هندى	٣٦٦
إنجليزى	٣٤١
إسبانى	٣٢٢
عربى	٢٤٠
بنغالى	٢٠٧
برتغالى	١٧٦
روسى	١٦٧

أما عدد الذين يجيدون الإنجليزية فى العالم فلا يمكن معرفته بدقة. لكن التقدير الجزافى المتداول هو مليار إنسان يعيشون فى قارات العالم الخمس.

وفى التاريخ الإنسانى كانت هناك فى كل العصور لغة تتفوق على اللغات الأخرى فى الأهمية لأنها لغة الحضارة المسيطرة فى العالم. كان هذا هو الحال بالنسبة للغة اليونانية قبل المسيح بعدة قرون ثم اللاتينية عندما كانت روما القوة العظمى التى تبسط نفوذها على

معظم بقاع العالم المعروف آنذاك ومنها مصر. وكان العالم يعيش ما يسمى «باكس رومانا» أى السلام الذى تفرضه روما على الجميع.

وكانت كل المعاملات تتم فى تلك العصور باليونانية ثم باللاتينية. وقد ظهرت آنذاك كلمة «بربرى» وكانت تعنى ببساطة كل من ليس يونانى أو رومانى ومن لا يتكلم اليونانية القديمة أو اللاتينية. كما كان العرب يطلقون لفظة «أعجمى» على كل من لا يجيد العربية، أيا كان أصله.

وعندما بزغ نور الحضارة الإسلامية أصبحت العربية هى لغة العلم والمعرفة والتفوق فى كل المجالات وكان علماء العالم يضطرون إلى الإلمام بالعربية ليكونوا على معرفة بآخر ما وصل إليه العلم الحديث فى ذلك العصر، نظرا لأن كل الاكتشافات والبحوث العلمية القيمة كانت تكتب بالعربية. وتماما كما أن علماء العالم اليوم الذين يجهلون الانجليزية يصبحون متخلفين عن ركب العلم والمعرفة فإن علماء الماضى كانوا يضطرون اضطرارا لتعلم العربية. فكل الاختراعات والأدوات العلمية التى كانت تسهل حياة الإنسان كانت تنطلق من العالم العربى الإسلامى وتصاغ بلغة الضاد.

وبعد عصر النهضة كانت الفرنسية هى لغة المعاهدات ولغة الدبلوماسية خاصة فى عصر لويس الرابع عشر (١٦٣٨ ـ ١٧١٥) الذى كان يلقب بالملك الشمس. وقد اتخذ هذا الملك من قصر فرساى مقرا له فأصبحت فرساى عاصمة العالم آنذاك ، وصارت

الفرنسية لغة تفاهم رئيسية وخاصة فى بلاط ملوك أوروبا وفى المحافل الدبلوماسية حتى بداية القرن العشرين.

* * *

اللغة المسيطرة إذا ليست ظاهرة جديدة لم يعرفها العالم إلا مع الانجليزية الأمريكية. لكن المؤكد أن وسائل الإعلام الحديثة وانتشار التلفزيون والإنترنت وسهولة الانتقال منحت الانجليزية فرصة لم تكن متاحة لأى لغة أخرى سيطرت حضارتها على العالم فى الماضى. فقد كان العارفون باللغة المسيطرة من خارج أصحابها فى الماضى هم شريحة ضئيلة جدا من المتعلمين والمفكرين. أما اليوم فإن معرفة الانجليزية أصبحت شائعة فى الطبقات العليا لكل المجتمعات شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وأصبح أى مثقف فى أى ركن من أركان العالم مطالب بالإلمام بهذه اللغة وإلا فإن ثقافته ستكون محلية ومحدودة.

وإذا كانت الانجليزية هى اللغة المهيمنة على عالمنا اليوم فإن الفضل فى ذلك لا يرجع إلى انجلترا برغم كونها أم هذه اللغة وموطنها الأصلى. إنما الفضل يعود للولايات المتحدة الأمريكية التى اتخذت الإنجليزية لغة رسمية منذ إنشائها فى عام ١٧٧٦ .

ولأن الولايات المتحدة أصبحت القوة العظمى الأولى فى عالم اليوم وصارت رائدة فى مجالات العلم والفن والإعلام والصناعة فإن لغتها تصدرت لغات العالم وأصبحت اللغة المتداولة بين الصفوة وفى المعاملات الدولية وفى الندوات السياسية والعلمية والثقافية الدولية. كذلك فإن أهم الأبحاث الطبية والعلمية يتم تداولها

بالإنجليزية وتطبع النشرات والمجلات المتخصصة فى كل المجالات العلمية بالإنجليزية الأمريكية دون غيرها.

وكما نجح الأمريكيون فى فرض الدولار كعملة التداول الأساسية فى العالم نجحوا أيضا فى جعل لغتهم هى لغة التفاهم الرئيسية فى كل المجالات. فالعقود الكبرى والاتفاقات الدولية والكتابات العلمية صارت تكتب بالانجليزية. وقد أصبح من الصعب الآن على أى إنسان يسعى للانفتاح على عالم المعرفة فى أى مجال من مجالات الحياة أن يجهل الإنجليزية جهلا تاما.

لكن ما لا يدركه الكثيرون هو أن السطوة اللغوية لا تعنى بالضرورة الانتشار. فاللغة الانجليزية برغم مكانتها ليست أكثر لغات العالم تداولا كما هو واضح من الجدول:

نسبة الناطقين بأهم لغات العالم كلغة أم (النسبة بالمائة)

اللغة	العام				
	١٩٥٨	١٩٧٠	١٩٨٠	١٩٩٢	٢٠٠٠
الصينية (مندارين)	١٥,٦	١٦,٦	١٥,٨	١٥,٢	١٤,٥
الهندية	٥,٢	٥,٣	٥,٣	٦,٤	٦,١
الإنجليزية	٩,٨	٩,١	٨,٧	٧,٦	٥,٧
الإسبانية	٥,٠	٥,٢	٥,٥	٦,١	٥,٤
العربية	٢,٧	٢,٩	٣,٣	٣,٥	٤,٠
الروسية	٥,٥	٥,٦	٦,٠	٤,٩	٢,٨

١. لا توجد احصائيات موثوق بها عن اللغات منذ عام ٢٠٠٠.

٢. يرجع الانخفاض الحاد فى عدد الناطقين بالروسية فى عام ٢٠٠٠ إلى أن العديد من دول الاتحاد السوفيتى السابق لم تعد تعتبر الروسية لغتها الأم.

ويتضح من الجدول أن اللغة الإنجليزية هى الثالثة فى العالم من حيث عدد المتحدثين بها بعد لغة الماندارين اكثر لغات الصين انتشارا، واللغة الهندية.

والأهم من ذلك هو أن عدد الناطقين بالإنجليزية كلغة أم قد تضاءل فى السنوات السابقة نسبة إلى سكان الكرة الأرضية لحساب لغات أخرى من بينها العربية. لكن المهم أن الانجليزية أصبحت لغة الرجال والنساء المؤثرين فى العالم. فرجال السياسة والدبلوماسية ورجال المال والاقتصاد والعلوم يتفاهمون فيما بينهم بالانجليزية. وباختصار فإنه إذا أراد أى شخصين مختلفين فى اللغة والثقافة التفاهم فيما بينهما فإنهما غالبا ما يلجآن إلى الانجليزية كلغة مشتركة بينهما.

وكان من الطبيعى أن يأتى رد الفعل الرافض لهيمنة الإنجليزية من أصحاب اللغة الثانية فى العالم من حيث الأهمية، وهى الفرنسية. وكانت الفرنسية حتى منتصف القرن العشرين منافسا عتيدا للإنجليزية ثم تراجعت بصورة واضحة خاصة بعد العدوان الثلاثى على مصر عندما أصبحت انجلترا وفرنسا دولتين من الدرجة الثانية.

وبهدف مواجهة احتكار الأنجلو ـ أمريكية أنشأت فرنسا تجمعا أطلقت عليه اسم «الفرانكوفونية» أى الناطقين بالفرنسية. والهدف الرسمى لهذا التجمع هو الدفاع عن التنوع الثقافى ورفض سيطرة لغة واحدة وقوة واحدة على العالم. وقد انضمت لهذا التجمع سبع

دول عربية من بينها مصر. ولأن الناطقين بالفرنسية فى مصر عددهم محدود للغاية، فمن الواضح أن قرار انضمامها كان وراءه هدف سياسى.. لكنه يقوم على البعد اللغوى.

ومن يراقب تطور اللغات فى العالم يتضح له أن الهيكل العام لاستخدام اللغات الحية لم يتغير كثيرا خلال النصف الثانى من القرن العشرين حتى اليوم كما يتضح من الجدول السابق.

هناك لغات انخفضت نسبة مستخدميها قليلا بفعل النمو الديمغرافى لدول الجنوب على حساب دول الشمال الغنية. فلغات مثل الانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية واليابانية عانت من هبوط نسبى فى نسبة الناطقين بها.

وفى مدينة دافوس السويسرية يجتمع سنويا فى الشتاء نحو ألف من أهم متخذى القرار فى العالم وخاصة فى المجال الاقتصادى. ويصل الوزن المالى لمرتادى منتدى دافوس إلى رقم فلكى يزيد على مئات المليارات من الدولارات. وخلال أسبوع تدور ندوات وحلقات بحث بين هؤلاء وبعض أبرز رجال السياسة الدوليين حول قضايا العالم الأساسية.

ولأن المشاركين فى المنتدى ينتمون لعشرات الدول الناطقة بلغات مختلفة فإن السؤال هو : كيف يتفاهم كل هؤلاء ؟ خاصة وأنه من مبادىء دافوس إلا توجد أية ترجمة فى اللقاءات والندوات.

والإجابة ببساطة هى أن اللغة الوحيدة المستخدمة فى الندوات واللقاءات هى: الانجليزية. وعلى الرغم من محاولات الناطقين

باللغة الفرنسية فى تنويع لغات المنتدى وإدخال الفرنسية ولو كلغة ثانوية للتعامل به، إلا أن الانجليزية لا زالت تسيطر بلا منازع على المشاركين فى منتدى دافوس. وينطبق ذلك على غالبية الندوات والمؤتمرات العلمية والثقافية الدولية فى العالم.

ومن المشروع أن نتساءل : لماذا نجحت الانجليزية فى أن تهيمن تماما وتصبح لغة التعامل الدولى فى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الواحد والعشرين ؟

لا نشك فى أن السبب الأول كما قلنا هو أن الولايات المتحدة صارت بعد انهيار الاتحاد السوفيتى القوة الأولى فى العالم. بل إنها أصبحت القوة المتحكمة فى مصائر الشعوب. ولا تكتفى أمريكا ببسط سيطرتها سياسيا واقتصاديا فقط ولكنها صارت أكبر مصدر للثقافة بالمعنى الواسع للكلمة. فهى أكبر مصدر للأفلام والأغانى والبرامج التلفزيونية والسى دى والإنترنت.

وقبلها، كانت الأمبراطورية البريطانية التى لا تغيب عنها الشمس تسعى لنشر ثقافتها ولغتها. لكن العصر اختلف حيث أصبحت أدوات الاتصال والإعلام والمعرفة غولا يسمح اليوم لأمريكا بتحقيق ما فشلت فيه بريطانيا فى القرن التاسع عشر وبداية العشرين. ويصل إجمالى الناتج القومى لمجموع الدول الناطقة بالإنجليزية اليوم إلى ٣١ ٪ من الناتج القومى العالمى. أما الدول الناطقة بالعربية فلا تمثل سوى ٦,٦٪ من إجمالى الناتج القومى العالمى.

لكن القوة ليست السبب الأوحد فى السيطرة اللغوية. فمن أهم ما يساعد على هيمنة الإنجليزية اليوم السهولة الشديدة لهذه اللغة خاصة بعد أن عبرت المحيط الأطلنطى من موطنها الأصلى بريطانيا إلى قارة أمريكا الشمالية. فقد اجتهد الأمريكيون ليجعلوا من لغة شيكسبير لغة مبسطة ومباشرة أصبحت أداة طيعة يستطيع أى طفل أن يتعلم قواعدها ويمتلك ناصيتها دون أن يعانى الأمرين كما هو الحال بالنسبة لأطفال الوطن العربى.

وقد طبقوا على اللغة ما نادى به الدكتور طه حسين للعربية فى بداية القرن الماضى. فهم يجتهدون لكتابتها حسبما تنطق وليس حسب القواعد الكتابية القديمة المبنية على أصل تكوين الكلمات. وكم لاقى طه حسين من هجوم وسخرية بسبب اقتراحه الذى تطبقه اليوم القوى العظمى اللغوية الأولى فى العالم.

وسهولة اللغة واستجابتها لاحتياجات الإنسان فى التعبير عن نفسه جعلت الكثيرين يقبلون على تعلم الإنجليزية. فهى لا تستغرق وقتا وجهدا كلغات أخرى مهمة مثل الفرنسية والإسبانية بالإضافة إلى تفوقها فى الأهمية العملية على كل لغات العالم اليوم.

* * *

وقد حاولت شعوب أخرى لها حضارات قديمة وراسخة أن تقوم هى الأخرى بعملية مواءمة لغوية. حاول الفرنسيون والألمان والإيطاليون. لكنهم لم ينجحوا نجاح الأمريكيين فى تحقيق ذلك على الرغم من جهودهم الضخمة لتطويع لغاتهم لمتطلبات العصر الحديث.

ففى الفرنسية مثلا اكثر من عشر تصريفات مختلفة للأفعال تعبر بدقة شديدة عن زمن الفعل. فيمكن بالفرنسية مثلا أن تتحدث عن حدثين متتاليين وقعا فى الماضى فتعرف من مجرد تصريف الفعل أيهما السابق على الآخر. وأذكر كم عانيت فى فصول الدراسة لحفظ هذه التصريفات المعقدة نسبيا والتى كانت مستخدمة وشائعة حتى منتصف القرن العشرين.

أما اليوم فقد صارت اللغة الفرنسية أكثر سهولة واختفت غالبية التصريفات المعقدة ولم يعد هناك إلا بضع تصريفات تعبر عن الأزمنة المطلوبة من ماض ومضارع ومستقبل.

ومع كل هذه الجهود لا زالت الفرنسية لغة صعبة مقارنة بالأمريكية. فقد نجح الأمريكيون فى غربلة اللغة الإنجليزية وإزالة شوائبها وقاموا بعملية تشبه ما يفعله الجزار الماهر عندما «يشفى» اللحوم فيستبعد ما لا يفيد ولا يحتفظ إلا بالضرورى والنافع.

والمهم أن التطوير الضخم الذى أدخله الأمريكيون على الإنجليزية لا يؤدى إطلاقا إلى عجزها عن التعبير الأدبى البليغ. فقد أبدع بها كتاب أمريكيون عظام مثل همنجواى وجون شتاينبك وأرثر ميلر. وقد ارتفع هؤلاء باللغة وبالمعانى إلى مستويات راقية تتناسب مع العصر وتتوافق مع مزاج الإنسان المعاصر، مما يدل على أنه لا توجد أية علاقة بين البلاغة وتعقيد اللغة وكثرة مترادفاتها.

وقد وضعت الجمعية الأمريكية لأساتذة اللغة الفرنسية فى نشرة بعنوان " أهم اللغات" (نشرة رقم ٣ لعام ١٩٩٩) ستة معايير لقياس أهمية كل لغة وهى الآتية :

(أ) عدد المتحدثين بها كلغة أم .

(ب) عدد المتحدثين كلغة ثانوية.

(جـ) عدد الدول وعدد سكانها الذين يتحدثون اللغة .

(د) عدد المجالات الأساسية (العلوم، الدبلوماسية وغيرها) التى تستخدم فيها اللغة على الصعيد الدولى .

(هـ) القوة الاقتصادية للدول التى تستخدم هذه اللغة .

(و) الأشعاع الثقافى والأدبى للدول التى تستخدم هذه اللغة .

ومن هذا المنطلق فقد وضعوا لكل لغة عددا من النقاط تعكس أهميتها وجاء ترتيب أهمية اللغات كالاتى :

اللغة	عدد النقاط
١ . الإنجليزية	٣٧
٢ . الفرنسية	٢٣
٣ . الإسبانية	٢٠
٤ . الروسية	١٦
٥ . العربية	١٤
٦ . الصينية	١٣
٧ . الألمانية	١٢
٨ . اليابانية	١٠
٩ . البرتغالية	١٠
١٠ . الهندو اوردية	٩

وإذا أردنا أن نعرف مكانة العربية بين لغات العالم من خلال بعض المعايير الهامة يتضح لنا ما يلى: أنها الخامسة فى العالم من حيث عدد الناطقين بها، والثامنة من حيث إجمالى الناتج القومى.

لكن هناك مجالات تتراجع فيها لغة الضاد بشكل لافت للنظر. ففى مجال النشر يتم سنويا طباعة ما يقرب من ٧٠٠ ألف كتاب. وتقف العربية فى موقع لا تحسد عليه حيث أنها رقم ٢٢ من بين لغات العالم فى هذا المجال.

أما فى شبكة الإنترنيت التى تعد من المعايير الهامة للتقدم فالإنجليزية هى الوحش المسيطر بنسبة تزيد على ٨٤ % من إجمالى ما يتم تداوله على شاشات الكومبيوتر فى العالم. وهناك فجوة ضخمة بينها وبين اللغة الثانية وهى الألمانية التى لا يزيد حجمها عن ٤,٥٪ تليها اليابانية (٣،١) ثم الفرنسية (١,٨). أما العربية فلم أجد لها أثرا بين الدول الخمس عشرة الأولى الأكثر استخداما على الإنترنت.

وإذا كان تعبير لغة عالمية لا ينطبق الآن بدقة على أى من لغات العالم فى بداية القرن الحادى والعشرين، فإن أقرب لغة إلى هذا المعنى هى بالتأكيد الإنجلو ـ الأمريكية. فقد نجحت هذه اللغة فى أن تكون قاسما مشتركا أعظم بين كل الذين يتطلب عملهم الاتصال بآخرين من دول أو ثقافات أخرى. وبالتالى فالأنجلو ـ الأمريكية هى المرشحة لتحقيق حلم الإسبرنانتو أى أن تكون لغة تفاهم عالمية.

ما نريد أن نستخلصه من الحديث عن لغة عالمية هو أن سيطرة الإنجلو ـ أمريكية لا تأتى فقط من كونها لغة الدولة المهيمنة فى عالم ما بعد الحرب الباردة، وإنما أيضا لأنها لغة سهلة، طيعة، يتطلب تعلم مبادئها جهدا أقل من أى لغة أخرى فى العالم، وبالتالى فإن من يتقنها يصل إلى المعرفة من أقصر الطرق .. على عكس العربية.

* * *

رسالة إلى حراس الضاد

أعرف مسبقا أن الآراء الواردة فى هذا الفصل والفصول القادمة ستجلب على انتقادات عنيفة ممن يعتبرون أنفسهم حراس اللغة وتراث السلف فى مصر وفى غيرها من الأقطار العربية. لكننى أعتبر أن اكبر خطر ستواجهه اللغة العربية فى السنوات القادمة يتمثل تحديدا فى أنصار التجمد ورفض التجديد. وفى رأيى المتواضع أن الذين يتصورون أنفسهم حماة اللغة العربية هم الذين يعرضونها لأكبر الأخطار برفض التطوير بل الثورة التى تستلزمها اللغة فى بداية القرن الحادى والعشرين لتظل لسان العرب المشترك فى الألفية الثالثة.

وأنا مقتنع أن ما أقترحه فى هذا الكتاب هو ـ فى خطوطه العريضة ـ الوسيلة الوحيدة لإنقاذ العربية وخروجها من المأزق الخطير الذى تعانى منه اليوم أكثر من أى يوم مضى للأسباب التى أوضحتها فى المقدمة..

فلغتنا فى حاجة الى انتفاضة تحديثية عاجلة.. وإلا فإنها قد تتعرض لخطر التقوقع وربما الاختفاء، لا قدر الله، كلغة حية يستخدمها الناس فى التعامل فيما بينهم. وقد تتحول إلى لغة لا يعرفها سوى بعض العلماء والمتخصصين، ويتعلمها الناس لقراءة القرآن الكريم فقط.

فمن يرقب تطور اللغة فى البلدان العربية يستشعر أن لغتنا الأصيلة مهددة بالضياع لحساب اللهجات التى يستخدمها الناس فى الأقطار العربية المختلفة للتعبير عن أنفسهم فى حياتهم اليومية. وهناك نفور واضح ومتزايد لدى الشباب من تعلم قواعد اللغة المعقدة والمفردات والتراكيب التى عفى عليها الزمن ولم تعد تفى باحتياجات الإنسان الحديث فى التعبير عن نفسه.

وكلما اجتاحت مظاهر التطور وسرعة إيقاع الحياة مجتمعات العالم العربى كلما ازداد الشعور العربى العام وخاصة لدى الشباب بأن لغة الضاد لا تسعف فى هذا الزمان المتسارع الإيقاع، الذى يصل فيه الناس إلى المعلومات وإلى المعانى فى أسرع وقت ممكن وأكثر الطرق مباشرة.

وقد سبقنى بعض كبار المفكرين وعمالقة الثقافة منذ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧٣) فى محاولة وضع أصابعهم على أسباب تخلف العالم العربى عن ركب الحضارة وخاصة عن العالم الغربى. لكن أحدا من هؤلاء العمالقة لم يتطرق إلى قضية اللغة بطريقة مباشرة أو اعتبرها عائقا لتقدم العالم العربى وازدهاره.

وأنا مقتنع أن اللغة التى أبدعت أعظم وأجمل وأرق ما كُتب فى تاريخ البشرية صارت اليوم مثل عجوز محنط فى حاجة إلى عمليات عاجلة للعودة إلى الصبا والتخلص من آثار الزمن. فالعربية كما قلت فى المقدمة، هى اللغة الحية الوحيدة فى العالم التى لم يطرأ على قواعدها الأساسية أى تعديل منذ أكثر من خمسة عشر قرنا كاملة.

أما باقى اللغات الحية فهى إما حديثة نسبيا أو قديمة، ولكن طرأت عليها تغييرات أساسية لمواكبة العصر.

وإذا أخذنا اللغات الأوروبية نجد أنها ارتبطت بصورة أو بأخرى بعصر النهضة. وقد تبلورت كلها فى شكلها الحالى فى حدود القرنين الخامس والسادس عشر. وقد لعب اختراع الطباعة على يد الألمانى جوتنبرج فى منتصف القرن الخامس عشر دورا حاسما فى تطوير اللغات الأوروبية.

فالفرنسية مثلا لا يتجاوز عمرها خمسة قرون. وكانت فرنسا مقسمة لغويا فى العصور الوسطى إلى شمال يتحدث الناس فيه لغة تسمى «أويل» وجنوب يستخدم لغة «أوك». ويذكرنا هذا باللغة العدنانية فى شمال الجزيرة العربية ولغة حمير فى جنوبها. ولم تصبح الفرنسية لغة رسمية إلا فى عام ١٥٣٩ بموجب مرسوم ملكى أصدره ملك فرنسا فرنسوا الأول (١٤٩٤ ـ ١٥٤٧) وعرف باسم مرسوم فيليرس ـ كوتريه.

أما الإنجليزية فإن دائرة المعارف البريطانية تشير إلى أن المؤرخين يجمعون فى غالبيتهم على أنها بدأت نحو عام ١٥٠٠ فى صورتها التى نعرفها حاليًا. وكما أن مونتينى (١٥٣٣ ـ ١٥٩٢) كان أول من أبدع بالفرنسية، فإن الرائد الأول للإنجليزية هو تشوسر (١٣٤٠ ـ ١٤٠٠).

لكن حتى مع حداثة هاتين اللغتين بالنسبة للعربية، فقد طرأت عليهما تغيرات أساسية. ولم تكن نتيجة التطور الطبيعى فحسب، وإنما بفعل تعديلات فى القواعد والتراكيب. فنحن إذا رجعنا للغة مونتينى، أول من كتب بالفرنسية الحديثة لوجدنا فروقا جوهرية مع الفرنسية التى يستخدمها الكتاب اليوم.

كذلك لو قارنا بين الانجليزية التى كان يكتب بها شيكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٥) مسرحياته الخالدة، واللغة الانجليزية المعروفة اليوم لوجدنا فروقا لا يمكن أن تخفى على أحد. وكما فى الفرنسية فإن التغيير ليس فى تطور الأسلوب وإدخال كلمات جديدة فحسب، وإنما فى القواعد الأساسية التى تضبط النحو والصرف فى اللغتين.

إذا فحتى اللغات الحديثة نسبيا تطورت من أجل مجاراة العصر ولكى تعكس بأمانة احتياجات الإنسان العصرى التى تختلف جذريا عن احتياجات سابقيه الذين عاشوا من مئات السنين.

أما اللغات القديمة مثل العبرية واليونانية والصينية فإنها تختلف اليوم اختلافا جذريا عن اللغات الأصلية التى كانت مستخدمة منذ أكثر من ألفى عام. والجدير بالملاحظة أن عمليات

التطوير التى عرفتها الصينية كانت تتم بطريقة تلقائية مرة كل نحو خمسمائة عام.

والخلاصة هى أن العربية هى اللغة الوحيدة على وجه الأرض التى لم تتطور قواعدها ونحوها وصرفها منذ ألف وخمسمائة عام، وهى اللغة الوحيدة فى العالم التى أصر الناطقون بها على تحنيطها وبذلوا كل الجهود للحفاظ على «نقائها».

* * *

ولأن اللغة هى انعكاس لاحتياجات المجتمع فى التفاهم والتعامل فلا يعقل أن تكون احتياجات المجتمع العربى فى القرن الواحد والعشرين مماثلة لاحتياجات سكان البادية فى القرن الخامس الميلادى قبل ظهور الإسلام. واللغة هى المحدد الرئيسى لأسلوب التفكير ورؤية الدنيا. فهل يعقل أننا نفكر اليوم مثل البدو فى القرن الخامس الميلادى بالجزيرة العربية وأن رؤيتنا للدنيا لا تختلف عن رؤيتهم ؟

ولو كان ذلك صحيحا لكان دليلا على تخلفنا الشديد. فسنة الحياة أن يتطور الفكر ويرتقى إلى آفاق أرحب بالتوازى مع التقدم المادى للمجتمع. ولا يمكن لإنسان القرن الواحد والعشرين أن يرى الدنيا كالبدوى فى صحراء القرن الخامس الهجرى الذى لم يكن يعرف عن العالم شيئا وكانت كل آفاقه هى كثبان الصحراء المحيطة به.

ولأن اللغة هى مرآة أمينة لتطور العقل، فإن عدم تطور قواعد اللغة العربية منذ ١٥٠٠ عام يحمل دلالات خطيرة أترك للقارىء أن يستنتجها بنفسه.

صحيح أنه علينا أن نفخر بأن أجدادنا وضعوا لغة جميلة كانت قادرة على تحدى الزمن وعلى التعبير عن أدق المعانى وأجمل المشاعر، إلا أنه لا يمكن أن تستمر العربية فى غياب تطوير جذرى فى قواعدها دون مواجهة خطر فقدان هويتها.

وكان أعظم ما نزل بالعربية هو القرآن الكريم. وهذا يجعلنا أكثر حرصا على الحفاظ على لغتنا الجميلة وأكثر تمسكا بها. والحفاظ عليها يستوجب العمل على تطويرها دون إبطاء حتى تواكب متطلبات العصر فى الصياغة والمفردات وقواعد النحو والصرف.

وتدل كل المؤشرات على أن الشباب حتى من خريجى أفضل الجامعات العربية أصبحوا يكتبون بلغة ركيكة ويقعون فى أخطاء لغوية فادحة. حتى خريجى كليات من المفترض أن يستخدموا العربية لممارسة عملهم مثل الحقوق والآداب قد وصلوا فى الآونة الأخيرة إلى مستوى لا يصدق من التدنى فى الإلمام باللغة وقواعدها.

وقد دأب الكتاب والمثقفون على السخرية من هؤلاء الشباب وصب لعناتهم على هذا الزمان. واكتفوا بذلك. فهم يعتبرون أن كل من لا يجيد قواعد العربية ويخطىء فى النحو جاهل ولا علاقة له بالعلم. والكل مجمع على أن السبب الوحيد فى هذه المحنة هى استهتار هؤلاء الشباب ورفضهم لبذل أى مجهود من أجل تعلم قواعد اللغة العربية ونحوها.

وهم يؤكدون أن الشباب فاشل فى كل العلوم التى يتلقاها فى المدرسة والجامعة وليس فى اللغة العربية وحدها، وهذا دليل على عدم جديتهم. لكن هذا الرأى يناقضه الواقع الذى يدل على أن القصور فى معرفة العربية لا يقع على الشباب وحدهم كما لا يقع على أبناء هذا الجيل وحدهم ولكنه قديم قدم اللغة نفسها.

والشكوى من الضعف فى اللغة كان موجودا فى كل حقبة من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية كما سنكتشف من خلال فصول هذا الكتاب. وقد لخص شاعر النيل حافظ ابراهيم هذا الهاجس فى قصيدة شهيرة نشرها عام ١٩٠٣ بعنوان «اللغة العربية تنعى حظها بين أهلها»، يقول فى مطلعها:

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتى ... وناديت قومى فاحتسبت حياتى

وهو هنا يتحدث بلسان اللغة العربية فيقول أنها اتهمت نفسها أولا بأنها السبب فى ضعفها الظاهر على ألسنة الناس، ثم حاولت أن تنادى الناطقين بالعربية للنجدة فخذلوها فاحتسبت نفسها عند الله.

ولا نقاش حول أن الناطقين بالعربية من الشباب وغير الشباب ممن يخطئون فى قواعد اللغة ومفرداتها يتحملون مسئولية كبيرة فى ضعف مستواهم اللغوى. لكن هل فكر أحد فى طرح السؤال التالى: هل الخطأ فى هؤلاء الشباب وفى الناطقين بلغة الضاد عامة فى هذا الزمان وحدهم ؟ أم أن الذنب يقع كذلك على تحجر اللغة وعدم ملاءمتها لمتطلبات العصر ؟ وهل الحل هو فرض اللغة

التقليدية كما هى دون تطوير على أساس أنها لغة التراث والأدب والثقافة العربية وأن أى مساس بقواعدها هو عدوان على الدين والمقدسات ؟ أم أنه آن الأوان أن نفكر فى كيفية تطويع اللغة لتلائم مقتضيات عصر جديد وفكر جديد لا بد من التعبير عنهما بأسلوب جديد ؟

أعلم أن هذه الأسئلة تعتبر خروجا قد لا يقبله البعض عن أساليب التفكير التقليدية، واقترابا من مناطق حساسة يقف على أبوابها الموصدة فريق من العلماء المؤمنين بضرورة الحفاظ على التراث اللغوى كما هو دون أدنى تحريف. وهؤلاء العلماء يعتبرون أى كلام عن تحديث اللغة بمثابة خوض فى المحظور وخروج عن إطار الدين الحنيف. وهم يتفننون أحيانا فى تعقيد اللغة وتقعيرها حتى تنغلق أكثر فأكثر على العامة فيصبحوا هم فئة متميزة ترتفع فوق باقى الناس بحذقها اللغوى.

وظاهرة رفض المساس باللغة العربية هى جزء من ظاهرة أعم أصبحت مسيطرة على المجتمات العربية.

فقد استشرى منذ الثلث الأخير من القرن العشرين تيار جارف يعتبر كل جديد بدعة مكروهة ويرى فى أى فكر حر متطور محاولة شيطانية لتقليد الغرب، ونبذا للدين والثقافة العربية الأصيلة. ويعتبر أصحاب هذا التيار أن واجبهم المقدس هو الوقوف بالمرصاد فى وجه كل من تسول له نفسه الخروج عن قوالب التفكير الجامدة ومحاولة تطوير الموروث والسعى وراء التجديد.

وهذا الاتجـاه المحـافظ الرافض من حيث المبدأ لأى تجـديد موجود منذ فجر التاريخ فى كل المجتمعات الإنسانية. وقد أثبت فى كتاب «الداء العربى» كم عانى الرسول الكريم ﷺ نفسه من أنصار الجمود الذين وصفهم القرآن قائلا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ (لقمان ٢٢).

***

وهناك معارك كثيرة فى تاريخ الحضارة العربية الإسلامية وحضارات أخرى اصطدم فيها الفكر الجديد بحراس الماضى.

ومن اشهر المعارك التى وقعت فى تاريخ الأدب العالمى «معركة هرنانى». وهذه التسمية معروفة لكل من يهتم بالأدب العالمى والفرنسى خاصة. وقد نشأت عندما كتب شاعر فرنسا الأشهر فكتور هوجو (١٨٠٢ ـ ١٨٨٥) مسرحية باسم هرنانى عام ١٨٣٠ حطم فيها كل القوالب الجامدة التى التزم بها المسرح الفرنسى منذ عصره الذهبى فى القرن السابع عشر. وضرب هوجو عرض الحائط بواحد من أسس المسرح الكلاسيكى الأوروبى وهى قاعدة وحدة المكان والزمان والموضوع. كما خرج عن الوزن الشعرى المعروف باسم «ألكساندران» أى «السكندرى» والذى يتكون من إثنتى عشر وحدة صوتية.

وهاج أنصار القديم. واعتبروا أن هوجو مارق ومحطم للتقاليد التى صنعت مجد فرنسا. وأغرب اتهام وجه إليه آنذاك هو الخروج

على تعاليم الديانة المسيحية والكنيسة الكاثوليكية، حامية التقاليد الراسخة التى استقر عليها المجتمع. وفى يوم افتتاح المسرحية نشبت معركة عنيفة وصلت إلى حد التشابك بالأيدى بين أنصار القديم والجديد.

لكن التطور الذى أحدثه هوجو هو الذى انتصر فى النهاية وتحرر المسرح الأوروبى والعالمى من القيود التى ربما كانت تناسب زمنا من الأزمان لكنها تتصادم مع طبيعة التطور التى استنها الله فى الأرض.

وقد أثبتت التجربة أن النزعة إلى التقوقع والخوف من العالم الخارجى تظهر وتستشرى بالتوازى مع الانحسار الحضارى. فالحضارات القوية الواثقة من نفسها تكون عادة على استعداد لتقبل الفكر الوافد من الخارج ومناقشته والتعرف عليه ونقل ما قد يفيد منه.

ومع ذلك فالميل إلى رفض كل جديد نزعة كامنة فى كل المجتمعات البشرية على مر التاريخ بصورة أو بأخرى. ومن الممكن إعادة قراءة التاريخ الفكرى للإنسانية من منظور الصراع الدائم بين حراس القديم ودعاة التحديث. ففى كل مرة طرأت فيها على مجتمع من المجتمعات تغيرات موضوعية، تستوجب تأقلم الفكر والثقافة والقوانين من أجل مطابقة الواقع المستحدث، نجد دائما من يهب للتمسك بالموروث دون تطوير، ويقاتل بكل شراسة كى تظل المرجعية الوحيدة هى مرجعية السلف.

وكم استخدم حراس القديم الأديان فى كل زمان لوقف أى تطور وحجب أى رؤى وآراء جديدة. وما يحدث اليوم فى العالم العربى هو تكرار لما وقع منذ العصر الجاهلى، مرورا بكل عصور الدول الأموية والعباسية والعثمانية وغيرها وحتى العصر الحديث.

* * *

وإذا قمنا بالمراجعة التاريخية التى أقترحها فسوف نستخلص منها أن أنصار التجمد يتصورون دائما فى المدى الآنى والقريب. لكن كل تجارب الماضى تثبت أن حركة التجديد التى أجهضت تترك دائما آثارا إيجابية وتؤدى إلى تقدم ولو محدود إلى الأمام.

والغريب أن من يقرأ تاريخ تطور الفكر الإسلامى يكتشف أن حراس القديم يتشدقون دائما بنفس الحجج وبذات المنطق، وخلاصته أن التجديد هو قطيعة مع الدين وأصوله وخروج عن تعاليمه، وأن أى فكر خارج عن الإطار الذى وضعه السلف يعد خطرا داهما على الأمة الإسلامية وعلى ديننا الحنيف. ويقوم فكر هؤلاء على المسلمات التى لا تناقش، والمحرمات التى يحظر الاقتراب منها. ومبدؤهم الراسخ هو التسليم التام برأى السلف وقطع رقبة من يجترىء على طرح أفكار جديدة.

ويستند هؤلاء على فرضيات من الدين ينطلقون فى تفسيرها من أرضية منطقهم الرافض للتقدم، فيستخلصون منها نتائج مخيفة لا علاقة لها بالدين الإسلامى من قريب أو بعيد. ويقف

حراس الماضى ضد كل فكر يعلى قيم الحرية والديمقراطية وتحرير المرأة وسعادة الإنسان المادية على الأرض. مع أن الدين الإسلامى قد أنزل من السماء رحمة للعالمين ومن أجل سعادة بنى آدم.

ولو التزمنا بكلام حراس الماضى، لظلت مجتمعاتنا العربية فى حالة من التخلف المرعب ، ولكنا اليوم نحبس النساء فى البيوت ونكتفى بتحفيظ القرآن الكريم بديلا عن المدارس والجامعات المدنية، ولما كان عندنا تليفزيون أو إذاعة أو صحف ولانعزلنا تماما عن العالم الخارجى. لو استمعنا على مر العصور إلى أنصار القديم لكانت حياتنا اليوم جحيما لا يطاق ويتعارض مع المبادىء الحقيقية لديننا الذى يدعونا إلى طلب العلم ولو فى الصين.

ومن واجبنا اليوم ألا نستمع إلى دعاوى حراس الماضى الباطلة ومحاولتهم تخويف وترويع كل من يطالب بالتغيير والتطور لملاحقة ما وصل إليه العالم المتقدم.

* * *

لكن الحيدة العلمية تدعونا إلى أن نذكر أن أنصار الماضى لعبوا أحيانا دورا إيجابيا فى الحفاظ على التراث وعلى التقاليد الأصيلة للمجتمع فى مواجهة تيارات تسعى إلى التجديد من أجل التغيير ورفضا لكل ما هو قديم دون تمييز. فكما أن هناك من يخاف أى تعديل لما نشأ عليه وتربى على احترامه وتقديسه فهناك من يدعوه طبعه إلى الثورة على كل شىء، ومحاولة العصف بأى فكر قديم

وبمجموعة القيم والتقاليد الوسسة للمجتمع الذى يعيش فيه، وذلك كرد فعل على قيود الأفكار المتوارثة من جيل إلى جيل.

ويقول شوقى فى هؤلاء:

لا نحذ حذو عصابة مفتونة يجدون كل قديم شيئا منكرا

وتطور المجتمعات يكون عادة فى التوازن بين التيارين. فالمحافظة على القيم والمثل التى تعد البوتقة التى ينصهر فيها أى مجتمع من المجتمعات هى صمام الأمان الحافظ على استقراره وتماسكه. لكن الاكتفاء بالموروث وحده يجعل المجتمع يتقوقع على نفسه ويتحجر ثم يذبل شيئا فشيئا. فكل مجتمع فى حاجة إلى جرعات منتظمة من التغيير والتبديل من أجل الاستمرار فى الحياة.

وكلما تأخر المجتمع فى قبول التجديد تزداد الحاجة إلى هزة أقوى للفكر المتوارث. فكل مجتمع فى حاجة ماسة خلال كل حقبة إلى أن يجارى التطور الطبيعى للحياة. لذلك كانت عمليات إعادة النظر فى الموروث لازمة فى كل عصر لاستمرار التطور باتجاه المستقبل.

وفى الماضى كان تطور الحياة الطبيعى بطيئا للغاية. أما اليوم فقد أصبحت ضرورة تطويع المجتمع للتطور أكثر إلحاحا خلال فترات زمنية قصيرة للغاية نظرا للإيقاع المتلاحق للتطور الطبيعى لأى مجتمع من المجتمعات. ولو طبقنا ذلك على اللغة، لأدركنا كم

تأخرنا وكم فوتنا من الفرص لإحداث ثورة لغوية تضع العربية على خريطة أكثر لغات العالم رقيا وتطورا.

والصراع بين القديم والحديث اتخذ فى الماضى أشكالا عنيفة كما حدث فى الثورات التى هزت العالم خلال القرون الماضية. ومن يدرس تاريخ أهم الثورات مثل الثورة الفرنسية فى ١٧٨٩ والثورة السوفيتية فى ١٩١٧، يتضح له أنها لم تكن نتيجة مصالح متناقضة وصراعات على الحكم بين الطبقات فقط، بل كانت خلفياتها دائما الصراع بين القديم والحديث. الصراع بين قيم وأفكار وعلاقات اجتماعية أصبحت بالية لكن أصحاب السلطة يتمسكون بها، ورؤية جديدة للحياة تسعى إلى فرضها شرائح غاضبة من الشعب.

لهذه الأسباب كان ماكيافيللى (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) يعطى فى كتابه الشهير «الأمير» نصيحة ثمينة حيث يقول للأمير الشاب الذى كان يلقنه دروسا فى فن السياسة: «**إذا أردت أن تتفادى الثورة.. فاصنعها بنفسك**».

ومعنى هذا الكلام أن الثورة على الماضى ضرورة حتمية يمكن أن تتم برضى الحاكم إذا تقبل الواقع الجديد وأجرى التغييرات التى تستلزمها ظروف عصره. أما إذا رفض ذلك وتمسك بالحفاظ على الماضى فإن الثورة على القديم ستتم فى كل الاحوال، ولكن بأشكال عنيفة وضد إرادته.

وإذا استخلصنا من حكمة داهية السياسة الشهير ماكيافيللى ما يفيدنا فى هذا البحث فإننا نقول: لنقم نحن بثورة فى اللغة العربية

اليوم بدلا من أن يفرض علينا الأمر الواقع ونجد لغتنا فى خطر داهم بعد بضعة أجيال قادمة. وعلى حد تعبير ما جاء فى تراثنا العربى فليتم ذلك «بيدى لا بيد عمرو».

* * *

وفى غياب إجابات صريحة وجريئة عن الأسئلة التى طرحتها حول أسباب ضعف المستوى اللغوى للناطقين بالعربية فإننا سنظل ندور فى حلقة مفرغة: شريحة متضائلة من المتخصصين يرفضون التطوير، لكن لهم الصوت العالى والسيطرة على مناهج التعليم وأدوات الثقافة والإعلام، ثم غالبية ساحقة لم تعد قادرة على استيعاب اللغة واستخدامها وتشعر بعقدة بسبب هذا العجز.

وهذه الإغلبية ليست من الشباب فقط ولكنها متمثلة فى كافة شرائح المجتمع. كما لا يقتصر الأمر على الطبقات التى لم تنل حظا كافيا من التعليم وإنما تمتد ظاهرة انخفاض المستوى اللغوى إلى طبقة المثقفين والمسئولين باستثناءات نادرة جدا. فغالبية رؤساء الدول العربية يقعون بخطبهم وأحاديثهم فى أخطاء لغوية فادحة وخاصة فى التشكيل. ولا تكاد خطبة مسؤول عربى على أى مستوى تخلو من أخطاء ولحن يخرق آذان من يعرف اللغة العربية. أما عن المذكرات الرسمية فى الحكومة والدواوين العامة فإنها مكتظة بالأخطاء.

وأعلم أن بعض المسئولين يأخذون على مرؤوسيهم أخطاء اللغة والهجاء التى يقعون فيها. لكن هؤلاء الوزراء والمسئولين أنفسهم

غير منزهين عن الخطأ فى العربية، ليس تقصيرا منهم، لكن لشبه استحالة عدم الوقوع فى الخطأ عند التحدث أو الكتابة بلغة الضاد.

* * *

ويبدو أن غضب كبار المسئولين من ضعف مستوى العربية عند مرؤوسيهم هو تقليد عربى قديم. فمن الروايات المتداولة فى مجالات باب «التوقيعات» أن الخليفة العباسى أبا جعفر المنصور (نحو ٧٠٩ ـ ٧٧٥) وصله كتاب من عامله على حمص به أخطاء فى اللغة، فكتب إليه : «استبدل بكاتبك، وإلا استبدل بك». أى «إرفد» من يكتب لك، وإلا «رفدتك».

وقد استهلكت الصحافة المصرية أنهارا من الأحبار لفضح الأخطاء اللغوية وخاصة بين أوساط الطلبة الجامعيين. واتضح أن مستوى اللغة وصل إلى درجة مفزعة من الانحطاط. وقد أفردت الصحافة المصرية مئات من الموضوعات تفضح فيها تدنى المستوى اللغوى فى أوساط الطلاب الجامعيين وأعطت أمثلة لأخطاء تقشعر لها الأبدان.

واتضح لى أن التهكم على الأخطاء اللغوية تقليد قديم فى الصحافة المصرية أيضا. ففى مارس ١٩٢٢ نشرت مجلة «روضة البلابل»، وهى أول مجلة موسيقية فى العالم العربى، وكان رئيس تحريرها لبنانى يدعى إسكندر شرفون، مقالا عن الأخطاء اللغوية التى يقع فيها كبار المطربين آنذاك أثناء غنائهم للقصائد الشعرية.

وكان كثير من هؤلاء المطربين يحملون لقب «شيخ» مما يعطى انطباعا بإجادتهم اللغة.

وكان أطرف مثال ضربته المجلة عن مطرب لم تذكر اسمه وقع فى خطأ مضحك لخلطه بين العامية والفصحى فى النطق. فكان يغنى قصيدة أبى فراس الشهيرة «أراك عصى الدمع»، وعندما وصل إلى البيت الذى يقول:

معللتى بالوصل والموت دونه   إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

نطق كلمة ظمآنا: «ظمقانا» لاعتقاده أن ظمآنا بالنطق العامى، فحولها هو.. إلى عربية فصيحة !!

* * *

وكثيرا ما فوجئت بكبار المثقفين يخطئون أخطاء لا تصدق فى لغتهم الأم التى يكتبون ويبدعون بها. وبعض هؤلاء أو معظمهم يعدون من رموز الأدب والكتابة فى مصر والعالم العربى.

وكنت أسأل نفسى وأنا أستمع إليهم : هل يمكن أن يكون جيش المسئولين والمثقفين والصحفيين والكتاب بهذه الدرجة من الجهل ؟

وعندما كنت أقارن حالنا بالآخرين كنت أجد نفسى مضطرا لأن أعترف بأنه لا يوجد مثقف واحد فى فرنسا أو انجلترا أو إسبانيا أو حتى البرازيل يخطىء فى لغته الأم بهذه الصورة. فهل كل الشعوب العربية بمثقفيها ومفكريها أصبحت معوقة ذهنيا بحيث لا تستطيع تعلم اللغة والإلمام بها إلماما سليما ؟

وإذا وسعنا باب المقارنة مع الآخرين نجد أن أية سكرتيرة متواضعة حاصلة على شهادة متوسطة فى أية دولة غربية قادرة على أن تكتب بنفسها خطابا دون أخطاء لغوية. وقد تعاملت خلال عملى فى منظمة اليونسكو الدولية مع أكثر من سكرتيرة فرنسية وفوجئت بأنهن تكتبن مذكرات وخطابات رسمية دون أى خطأ. أما فى الوطن العربى فإن أعلى القيادات الوظيفية من الحاصلين على أعلى الشهادات الجامعية عاجزون عن صياغة مذكرة أو خطاب خاص بعملهم دون أخطاء لغوية فى العربية.

فهل السكرتيرة الفرنسية تمتلك قدرات ذهنية أرقى من المثقفين وأصحاب الشهادات العليا فى العالم العربى ؟ بالطبع لا. إذا فالخلل يكمن فى الطرف الآخر من المعادلة، وهو اللغة المستخدمة للتعبير عند كل من الطرفين : السكرتيرة الفرنسية والمثقف العربى. فاللغة الفرنسية طيعة وسهلة ومباشرة. كما أن السكرتيرة مثلها مثل كل من يجيد الفرنسية لديها أدوات تسهل مهمتها وتجعلها قادرة على تجنب الخطأ. وعلى رأس هذه الأدوات قاموس اللغة الفرنسية الذى يقوم على ترتيب الحروف الأبجدية بالإضافة إلى ترسانة من القواميس الخاصة بالقواعد وبالمترادفات وغير ذلك من الكتب التى يتعلم أى تلميذ فرنسى كيفية استخدامها فى المدرسة.

* * *

وقد يكون أول رد فعل لمن يقرأ هذا الكلام هو الاعتراض بأن العربية قد طرأت عليها تطورات كبيرة بالفعل وأننى أغفلت ذلك

فى تحليلى لاشكالية العربية فى العصر الحديث. لكنه لم يفتنى أن العربية التى نستخدمها اليوم تختلف كثيرا عن اللغة التى كان يستخدمها أجدادنا فى الماضى البعيد وحتى القريب. لا أشك أن العربية قد عرفت تطورا ضخما خلال القرن العشرين. لكن هناك فرقا جوهريا بين التطور والتطوير. فمنذ ظهور الصحافة بصفة خاصة بدأت العربية مرحلة جديدة من التطور الطبيعى المنسجم مع ضرورة الاتصال بالناس وتقديم المعلومات للقارىء بالصورة التى يقدر على استيعابها.

لكن ما أقصده ليس التطور.. وإنما التطوير. وهناك فرق جوهرى بين الاثنين. فالأول هو ظاهرة طبيعية لا يستطيع أحد أن يقاومها لأنها سنة من سنن الحياة. لكنها تحدث دون تدبير محكم يضعها فى سياق منهجى. أما التطوير فهو جهد إرادى جماعى للخروج من حالة السكون وذلك من خلال تقنين التطور وإيجاد الآليات اللازمة للوصول به إلى مداه.

ولغتنا الجميلة أصبحت فى حاجة ماسة إلى التطوير الطوعى حتى لا نجد أنفسنا فى خلال عقود قليلة أمام معضلة مخيفة وهى خطر الانقطاع عن ثقافتنا وتراثنا بسبب تعنت بعض العقول المتحجرة الرافضة لكل جديد.

إن اللغة كائن حى يحتاج على الدوام إلى تغذية وعمليات إحلال وتبديل كما يحتاج الإنسان إلى الغذاء وإلى تجديد خلايا جسده.

ومن يطالب بتحنيط اللغة وعدم المساس بها فكأنه يطالب بموتها لأن التحنيط لا يكون للأحياء وإنما للأموات وحدهم. والذين يرفضون تطوير اللغة يرفضون فكرة أنها كائن حى ويغلفونها بهالة الدين فتصبح فى عيونهم لغة ليست ككل لغات العالم وإنما نسيج لا مثيل له.

والواقع يقول عكس ذلك. فالأدب العربى عظيم لا شك فى ذلك. لكنه ليس الأدب الوحيد فى العالم وقد أبدع شيكسبير بالانجليزية وجوته بالألمانية وموليير بالفرنسية روائع تبارى ما أبدعه المتنبى وأبو العلاء وطه حسين. وأنا من الذين يرون أن الشعر العربى القديم يفوق فى رقته وجماله ما أبدعه فطاحل الأدب الغربى. لكنه رأى شخصى، والأرجح أنه رأى غير موضوعى لأن ثقافتى الأولى التى نشأت عليها هى العربية.

* * *

هل العربية لغة مقدسة ؟

من المؤكد أن اللغة العربية تدين باستمرار وجودها حتى بداية القرن الحادى والعشرين للقرآن الكريم. فلولا القرآن لما ظلت العربية لغة متماسكة يتحدث بها أكثر من ٢٧٠ مليون من البشر فى العالم أجمع.

ومن هنا فإن علاقة اللغة بالدين من أخطر القضايا وأكثرها حساسية. وقد أسهمت بعض الأفكار الجامدة التى تقف بالمرصاد فى وجه أى تطور إلى تحنيط اللغة وعزلها عن مجاراة العصر. وتصب هذه الأفكار فى قالب واحد وهو الربط المباشر بين العربية والدين.

ويزعم أصحاب هذه الأفكار أن العربية ليست فقط اللغة التى نزل بها القرآن، ولكنها لغة الدين ذاته وبالتالى فهى محاطة بقدسية خاصة ترفعها إلى مرتبة تجعل المساس بها نوعا من أنواع الكفر. ومن هذا المنطق ظهرت نظرية تصف اللغة العربية بأنها لغة «توقيفية» أى أنها منزلة من السماء وبالتالى فهى متوقفة بجوهرها عن أى إضافة أو حذف أو تعديل بيد البشر.

وفى مواجهة هذا التيار ظهرت نظرية أخرى ساندها أصحاب العقل تقول إن العربية مثلها مثل باقى لغات العالم هى لغة «اصطلاحية» أى أن الناس اصطلحوا على كلمات ومعان من واقع ثقافتهم وتجاربهم المتراكمة ووضعوا قواعد لضبط لغتهم.

وفكرة قدسية اللغة وانتمائها إلى عالم يسمو فوق مستوى عالم الإنسان قديمة قدم التاريخ. فالمصريون فى عصر الفراعنة كانوا يؤمنون بالإله تُحُتُ، رب الحكمة والكتابة. وكانت اللغة المصرية القديمة تكتب بخطوط ثلاثة هى الهيرغليفية والهيراطيقية وظهرتا فى توقيت واحد تقريبا نحو ٣٢٠٠ قبل الميلاد. ثم ظهرت الديموطيقية فى نحو القرن السابع قبل الميلاد.

وكان أهل مصر يعتبرون كل هذه الخطوط واللغة نفسها هابطة من السماء وأنها هبة من الآلهة. وكان المصرى يرمز إلى اللغة بتعبير مِدو نِثْر ومعناها كلام الآلهة. وكانت القناعة الراسخة هى أن الإنسان لا علاقة له باللغة ولم يخترعها ولم تتطور أو تتبلور ولكنها هبطت من القوى الفوقية جاهزة للاستعمال دون تغيير أو تبديل.

ومن المؤكد أن كهنة آمون وحاشية فرعون ساعدوا على ترويج هذا الاعتقاد. وكان الهدف هو تكريس الكهنوت المسيطر على عقول أبناء الشعب البسطاء وإجبارهم على تبجيل اللغة، ومن ثم تبجيل الطبقة العليا المكونة من الكهنة وحاشية فرعون الذين يعرفون أسرارها دون غيرهم، والخوف منهم واعتبارهم حملة المعرفة المطلقة والوحيدة على وجه الأرض.

وفى سومر التى كانت تقع فى جنوب بلاد ما بين النهرين (العراق حاليا) والتى ظهرت فيها حضارة شبه متزامنة مع بداية الحضارة المصرية، كان الشعب يؤمن هو الآخر بأن اللغة السومرية مقدسة.

ويختلف العلماء إلى الآن حول الحضارة التى ظهرت فيها الكتابة أولا أهى مصر أم سومر. لكن المؤكد أن الحضارة المصرية كانت أكثر تطورا ونضجا وتركت آثارا لا زالت تبهر الإنسانية.

وأيا كان الأمر فإن السومريين كانوا مقتنعين تمام الاقتناع بأن الألهة قد منت عليهم بلغة يتحدثون ويكتبون بها، وأنه لولا إحسان الآلهة عليهم لما استطاعوا الكتابة ولا التفاهم فيما بينهم.

وهناك حضارات أخرى قديمة ظنت كل منها أن لغتها نزلت من السماء وأنها ليست من وضع الإنسان الذى يستخدمها. فالذين روجوا لفكرة قدسية اللغة العربية لم يأتوا بجديد ولكنهم ساروا على نهج العديد من الحضارات القديمة.

* * *

وكل هذه الأفكار حول قدسية اللغة لا أصل لها فى القرآن ولا فى السنة. فهل يفهم من أى كلمة فى القرآن أو السنة أن العرب هم أفضل الشعوب ؟ وهل يفهم من أى كلمة فى القرآن أو السنة أن العربية هى أفضل اللغات ؟ وهل هناك أية إشارة إلى أنه يتحتم على كافة الناس تعلم اللغة العربية ؟

فالقرآن نزل بالعربية حتى يفهمه أهل الجزيرة العربية التى هبط الوحى على أشرف أبنائها وهو سيدنا محمد ﷺ. واستخدم القرآن الكلمات والتراكيب المفهومة من أبناء هذا العصر وهذه البقعة من الأرض، والذين آلت إليهم مسئولية نشر الرسالة، وهو ما فعلوه بأمانة بعد الرسول ﷺ فى عصر الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين فى عصرهم الأول. والقرآن نزل لكل أبناء البشر فى كل بقعة من بقاع الأرض. لكنه هبط فى مكان وزمان محددين فكان لا بد من أن يفهمه العرب أولا. يفهمونه باللغة التى يعرفونها وبأمثلة من البيئة التى يعيشون فيها.

فجاءت أمثلة القرآن بالبقرة والناقة والصحراء وغير ذلك. وكان من الممكن أن يعطى القرآن أمثلة بالطائرة والأقمار الصناعية وناطحات السحاب مثلا. لكن أهل الجزيرة فى ذلك العصر كانوا سيعجزون عن إدراك معنى هذه الأمثلة فينتفى الغرض الأول من التنزيل، وهو استيعابهم لمعانى القرآن وإيمانهم به. ولو نزل القرآن باللغة الآرامية مثلا لما فهم معانيه أهل مكة والجزيرة.

والقول بأن العربية لغة «توقيفية» أى منزلة من السماء، وبالتالى فهى لغة مقدسة لا يجوز المساس بها، هو قول يناقض فى رأيى صحيح الدين الإسلامى. فلو كانت العربية مقدسة وتسمو فوق كل لغات العالم لكان العرب قادرين من خلال استخدام هذه اللغة البلوغ إلى ما بلغه القرآن من إعجاز. فالعرب فى عصر الدعوة

كانوا متمكنين من العربية تمكنا مدهشا، وكان بينهم ملوك البلاغة والبيان من فطاحل الشعراء والرواة. وقد تحداهم القرآن فى أكثر من آية أن يأتوا بآية واحدة مشابة لكلام الله فعجزوا عن ذلك.

فقال تعالى:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ (البقرة ٢٢).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ (يونس ٣٨).

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ﴾ (هود ١٣).

ولو كانت العربية مقدسة فما الذى أعجزهم ؟ لو كانت اللغة مقدسة وهابطة من السماء لكان الإعجاز فى ذاتها، ولكان العرب قادرين بالتالى على الإتيان بمثل ما جاء بالقرآن. لكنهم فشلوا فشلا ذريعا. فالإعجاز إذا فى القرآن وليس فى اللغة.

وقد وقعت معجزات ذكرها القرآن من أهمها قصة عصا موسى، التى التهمت ما جاء به سحرة فرعون. فهل يمكن أن نعتبر عصا موسى مقدسة، وأن كل عصا فى الدنيا تنسحب عليها صفة القداسة ؟ بالتأكيد لا. فعصا موسى كانت مجرد أداة لمعجزة أرادها الخالق. لكن المعجزة ليست فى ذاتها. كذلك فقد كانت العربية أداة لمعجزة القرآن.

وقد أدرك العرب منذ البداية أن القرآن، وإن كان بالعربية، إلا أنه ليس من لغتهم وكانوا يقولون: ليس بنثر وليس بشعر. وقال

أنيس الغفارى وهو شقيق أبو ذر: **عرضت القرآن على السجع والشعر والنظم والنثر، فلم يوافق شيئا من طرق كلام العرب.**

هذا مع أن القرآن استخدم المفردات المعروفة لأى عربى فى البادية آنذاك وكان مفهوما تماما للجميع. لكنه جاء بشىء غير موجود فى اللغة ولم يستطع أحد تقليده وقتها أو بعد ذلك.

وكل هذا يؤكد لنا أن الإعجاز ليس فى اللغة العربية وإنما فى القرآن وحده. فكيف نقول إن العربية لغة مقدسة ؟ ومحاولة إحلال الإعجاز القرآنى فى اللغة التى نزل بها هو خلط لا يسانده المنطق ولا صحيح فهم الدين. لقد نزل الدين الإسلامى لكل البشر فى كل مكان وزمان. وكان من الممكن أن يتنزل بالتالى بلغة غير العربية. وكان إعجازه عندئذ سينبع من ذاته وليس من اللغة الى نزل بها.

ولو كانت العربية لغة مقدسة لكان الدين الإسلامى للعرب وحدهم وللذين يجيدون لغة الضاد دون غيرهم من البشر. وهذا يناقض صلب الدين الإسلامى الحنيف. ولو كانت العربية مقدسة فإن من لا يفهمها لا يكون مسلما كامل الإسلام والإيمان.

وهذه الفرضية تخرج من زمرة المسلمين الغالبية العظمى من الشعوب الإسلامية، كما أنها إجحاف لمئات الملايين من المسلمين الذين لا يجيدون العربية.

فقد دخل الإسلام فى حياة الرسول ﷺ أناس لا يعرفون العربية فتقبلهم النبى دون أن يثير مشكلة اللغة وعجزهم عن فهمها. بل أن الرسول ﷺ كان يعتبر هؤلاء مسلمين على درجة متساوية مع العرب

الناطقين بالضاد. ويقول الحديث : «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى»، ولم يقل بالنسب أو العرق أو بمعرفة اللغة. ولو كان الرسول ﷺ يرى فى العربية لغة مقدسة منزلة من السماء لكان من المنطقى أن يعتبر من يتحدث لغة أخرى كافرا وعاصيا لأوامر الله، ولكان العربى فى هذه الحالة فوق كل البشر لأنه يتحدث اللغة المقدسة.

ولو كان صحيحا ما يقذف به البعض فى وجوهنا من قدسية اللغة العربية لرفض رسول الله ﷺ ، وهو أدرى بمشيئة الخالق، أن تترجم معانى القرآن إلى أى لغة أخرى. وهناك رواية معروفة تناقض ذلك حول سؤال سلمان الفارسى عن أبناء جنسه الذين لا يفهمون العربية: هل يترجم لهم القرآن أم لا. وكان سلمان متحرجا من ذلك فاستفتى الرسول ﷺ. وأجابه محمد ﷺ بأن عليه أن يترجم لهم معانى القرآن بلغتهم حتى يفهموه.

ولو كانت العربية لغة مقدسة لا بد لكل مسلم من إجادتها كشرط مسبق لدخوله الإسلام ولاكتمال إيمانه، لفرضها الرسول ﷺ على غير العرب. وهو ما لم يحدث. ولو فعل الرسول ﷺ ذلك لانحصرت الدعوة فى العرب وحدهم وانتفى بالتالى الغرض الأساسى منها. لكن الرسول ﷺ كان يدرك تماما أن اللغة ما هى إلا أداة لتوصيل الرسالة السماوية إلى بنى البشر، وحرمان الفرس أو غيرهم من فهم معانى القرآن يجعل الإسلام دين الخاصة كما هو الحال بالنسبة للديانة اليهودية. فاليهود لا يسعون إلى نشر دينهم بل يتحفظون على أى شخص راغب فى اعتناق اليهودية.

وهذا عكس منطق الإسلام الذى كان الرسول ﷺ أمينا عليه فسمع لسلمان أن يترجم معانى الآيات إلى الفارسية.

***

وبعد انتشار الدين الحنيف بسطت الدولة الإسلامية نفوذها على أراض شاسعة تغطى أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. وقد تبنت بعض شعوب هذه البلدان اللغة العربية كمصر والشام والعراق ودول المغرب العربى. لكن غالبية الشعوب التى دخلها الإسلام ظلت متمسكة بلغاتها الأصلية. وهذا الذى يفسر أن غالبية المسلمين اليوم لا يجيدون العربية. ولم تخطر على بال الفاتحين العرب فكرة فرض العربية على الشعوب التى خضعت لدولتهم. وهذا دليل على أن فكرة قدسية اللغة لم تكن مسيطرة على الأذهان فى العصور الأولى للدولة الإسلامية.

واليوم فإن غالبية المسلمين فى الأرض لا يعرفون العربية. ومع ذلك فإنه لا يمكن التشكيك فى إسلامهم وفى صحة إيمانهم. بل إن نسبة المسلمين غير العرب أكبر كثيرا من نسبة العرب المسلمين. فحسب آخر التقديرات هناك اليوم فى العالم ١,٢٥ مليار مسلم فى حين أنه لا يوجد أكثر من ٢٤٠ مليون عربى تعد العربية لغتهم الأم، من بينهم أكثر من عشرة ملايين من غير المسلمين. أى أن نسبة المسلمين الذين تعد العربية لغتهم الأم تمثل ١٩,٢٪ من مجموع مسلمى العالم.

وبحسبة بسيطة فإن ٨١ ٪ من المسلمين لا يعرفون اللغة العربية التى نعتبرها نحن العرب الركن الأساسى للدين. كذلك فهناك فقهاء تعمقوا فى الدين وهم لا يجيدون العربية إجادة حقيقية مثل أبى الأعلى المودودى والخمينى، حتى وإن كنا لا نتفق معهما فى نظرتهما إلى الدين، وغيرهم كثيرون.

وبالتالى فإن الربط بين الدين واللغة له حدود ولا يمكن أن يكون ربطا مطلقا. وهناك فى إندونيسيا وماليزيا والهند وأفريقيا وغيرها مئات الملايين من المسلمين الذين لا يمكن التشكيك فى تقواهم وفى صدق إيمانهم، لكنهم لا يعرفون من العربية سوى بضع آيات قصار يحفظونها عن ظهر قلب وكثيرا ما لا يفهمون معناها بدقة. وفى مسابقات تلاوة القرآن الكريم يفاجأ كبار الشيوخ من العرب بشباب من بلاد إسلامية غير عربية يقرأون القرآن دون أقل خطأ وبنطق جميل، لكنهم عندما يتحدثون إليهم بالعربية لا يفهم هؤلاء الشباب شيئا ويلجأون إلى مترجم للتفاهم مع الأساتذة الممتحنين.

وقد مررت بتجربة شخصية زادت اقتناعى بذلك عندما أشرفت فى باريس على عدد مجلة رسالة اليونسكو، والذى تم تخصيصه بالكامل للإسلام عام ١٩٨٠ بمناسبة مرور ١٤٠٠ عام على الهجرة النبوية. وقد طلبت بهذه المناسبة من الأستاذ حميد الله، وهو هندى الجنسية ومن كبار المتخصصين فى الإسلام، كتابة مقال لإدراجه بالمجلة. ولهذا الرجل ترجمة شهيرة لمعانى القرآن باللغة الفرنسية. ولم أكد أصدق أن هذا العالم الكبير فى شؤون الإسلام لا يستطيع

فهم العربية. وسألته كيف ترجم القرآن فقال إنه يعرف القواعد الأساسية للغة واستعان بكل الترجمات السابقة للقرآن بعدة لغات. وفى العديد من البلاد الإسلامية يوجد حفظة للقرآن الكريم قادرون على ترتيله أو تلاوته دون أدنى خطأ. لكن المفارقة أن الغالبية الساحقة لهؤلاء لا يفهمون معنى ما يقرأون. وقد سألت بعضهم فى هذا فقالوا إنهم يفهمون المعنى الإجمالى لكل آية نظرا، لأنها مترجمة بلغاتهم. لكنهم عاجزون تماما عن فهم الكلمات ولا المفردات العربية التى تتشكل منها آيات الكتاب الكريم.

فالقول بأن كل المسلمين يجيدون العربية هو قول زائف يروج له بعض الذين يدافعون عن نظرية قدسية اللغة العربية. ولم يبدأ منطق تقديس اللغة ورفعها إلى مستوى المحرمات التى لا يجوز المساس بها فى الظهور إلا بعد وفاة الرسول ﷺ بسنوات طويلة. وكان الدافع وراء هذا المنطق البعيد عما جاء به محمد ﷺ، هو المزايدة والغلو فى كل شىء.

ومن المؤكد أن عرب الجزيرة كانوا مؤهلين نفسيا لتقبل فكرة قدسية اللغة. فالهالة التى كانوا يحيطون بها اللغة والبيان وأهميتهما المحورية لديهم فى الجاهلية وعصور الإسلام الأولى لعبت دورا كبيرا فى تثبيت فكرة قدسية اللغة. ويدل ما وصل إلينا من الشعر الجاهلى أن أعلى الفضائل فى سلم أولويات العرب آنذاك تنبع من مصدرين: الأول هو الشجاعة والفروسية والثانى هو الفصاحة.

وكانت صفات الشجاعة والبطولة قاسما مشتركا أعظم مع غالبية، إن لم يكن كل المجتمعات القديمة حيث كانت القوة هى الوسيلة الأولى لبسط السيطرة والحصول على المكتسبات. وقد بحث علماء الأنثروبولوجى والاجتماع كثيرا ولا زالوا فى أصل الحروب والعنف عند بنى البشر. وأيا كان الأمر، فإن العرب لا ينفردون بوضعهم الشجاعة فى أعلى سلم أولويات مفاخراتهم.

أما الصفة الثانية التى كانت لا تقل أهمية عن الأولى عند العرب وأقصد بها الفصاحة والبلاغة فهى خاصية نادرة التواجد فى المجتمعات القديمة. ولا أعتقد أن هناك مجتمعا فى التاريخ البشرى اهتم بالبلاغة مثل العرب. ولتأكيد هذا المعنى وصف الشيخ محمد عبده البلاغة بأنها «سيدة علوم العرب». ولم يقل سيدة آداب أو فنون العرب.

صحيح أن الحضارة اليونانية القديمة كانت تولى هى الأخرى أهمية محورية للبلاغة ولكن بمفهوم مختلف. فالبلاغة عندهم كانت تقوم على المعنى أكثر مما تقوم على التلاعب باللغة، كانت تقوم على الإقناع المنطقى أكثر مما تقوم على سحر الكلمات وتنميقها.

ومن المعروف أن السوفسطائيين كانوا يشتهرون بقدرتهم على إقناع أى شخص بفكرة معينة. وعندما يقر باقتناعه بها يقوم نفس الذى أقنعه بالرأى الأول، من خلال حجج مختلفة، بإقناعه بعكسه. وكان بعضهم يتكسب من هذه الحيل البلاغية. لكنها بلاغة المضمون لا بلاغة الزخرف.

وكان هناك فى أذهان العرب فى العصر الجاهلى ارتباط وثيق بين البيان والسحر. وهناك الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ: **«إن من البيان لسحرا»**. فالعرب كانوا يعتبرون أن الشعر هو نوع من أنواع السحر وأن الشاعر تتملكه قوى خفية تنفث فى نفسه الكلمات والمعانى التى تخرج من فمه شعرا. وكانوا مؤمنين بأن الجن والشياطين تتدخل فى عملية الخلق الشعرى.

وهذا يفسر أنه من شدة انبهارهم بالقرآن وما جاء به من إعجاز لم يجد المشركون إلا أن يتهموا الرسول ﷺ بالسحر.

وكان الرسول ﷺ يعلق على شعر حسان بن ثابت ضد المشركين قائلا : **«لهذا أشد عليهم من وقع النبل»**. فالرسول ﷺ كان يدرك ما للشعر من وطأة نفسية جبارة على عقول أهل الجزيرة ونفوسهم.

والوقائع التى تدل على حب الرسول ﷺ للشعر لا حصر لها. فقد كان عليه السلام يطرب لشعر الخنساء ويشجعها قائلا : هيه يا خناس.

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة فى العام التاسع للهجرة أهدر دم مجموعة من الكفار. وكان من بينهم الشاعر كعب بن زهير. ولم يجد هذا الشاعر الماكر لنيل عفو الرسول ﷺ سوى التسلل لمجلسه وإلقاء قصيدة رائعة قال فى مطلعها:

بانت سعاد فقلبى اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

فما كان من الرسول ﷺ إلا أن خلع عليه بردته كما جاء فى كتب السيرة. وهذا معناه عند عرب الجزيرة أن هذا الرجل أصبح فى حماية الرسول ﷺ. فلم يكتف النبى بالعفو عنه فقط وإنما أنعم عليه بحمايته الشخصية. ومن المؤكد أن موقف النبى نابع من رحمته وأخلاقه السامية لكن السبب المباشر فى العفو والحماية هو قصيدة شعر رائعة مست الأوتار الحساسة عند محمد ﷺ.

ويروى عن معاوية بن أبى سفيان (نحو ٦٠٢ . ٦٨٠) مؤسس الدولة الأموية أنه كان يذكر ليلة الهرير بصفين وهى معركته الشهيرة على السلطة مع على بن أبى طالب (نحو ٦٠٢ . ٦٦١)، فيقول إنه قد هم بالفرار لولا أن ذكر أبيات عمرو بن الإطنابة التى تقول:

أبت لى همتى وأبى بلائى ... وأخذى الحمد بالثمن الربيح
وإجشامى على المكروه نفسى ... وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وثارت ... مكانك.. تحمدى أو تستريحى

فقاتل حتى انتصر فى هذه المعركة الفاصلة. أى أن معاوية يعترف بأن لهذه الأبيات فضلا فى إقامة صرح دولته التى امتدت إلى جبال البرانس.

وظل عشق اللغة ممتدا بعد استتباب الإسلام وانتشاره. فبعد الرسول ﷺ بأربعة قرون، قال أبو العلاء المعرى بيته الشهير :

وإنى وإن كنت الأخير زمانه ... لآت بما لم تستطعه الأوائل

ولم يطلب منه معاصروه من العرب أن يخترع شيئا جديدا مفيدا أو أن يخرق قاعدة من قواعد الطبيعة التى عجز سابقوه عنها. لم يطلبوا منه أن يشفى المرضى أو أن يغير الحديد إلى ذهب. كل الذى وجدوه لتعجيزه كان أن يجد حرفا جديدا يضاف إلى أبجديات العربية. ويقال إن أحد أطفال معرة النعمان طلب منه أن يأتى بالحرف التاسع والعشرين الذى عجز السلف عن الإتيان به.

وتدل هذه القصة إن صحت على مدى تأثر الناس وحتى الأطفال باللغة وبأنها أهم شىء فى حياتهم.

* * *

وكان عشق العرب الأول هو التلاعب بالكلمات والبحث عن الغريب فى الشكل أكثر منه فى الجوهر. وقد بلغ استظهارهم لمهارتهم واستعراضهم لعضلاتهم اللغوية أن تبادلوا رسائل تقرأ فيها الجمل من اليمين أو اليسار كما جاء فى رسائل القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى مثل: «**سر فلا كبا بك الفرس**» أو «**سور حماة بربها محروس**». وقد امتد هذا الجهد المنزوف عبثا إلى الشعر فيقول أحدهم:

مودته تدوم لكل هول ... وهل كل مودته تدوم

ومن الواضح أن المعنى مسطح ومكرر. لكن هذا ليس مهما. فالمهم هو التلاعب بالألفاظ والزخرف الذى لا طائل من وراءه.

وكان واصل بن عطاء أحد مؤسسى فكر المعتزلة يلثغ فى حرف الراء. فكان يتفاداه بقدر الإمكان فى خطبه وكلامه. وله خطبة كاملة فى التحريض على بشار بن برد لا يرد فيها حرف الراء على الإطلاق. وهى تعد فى أدبيات العرب فتحا كبيرا، يفوق الاختراعات التى أحدثها كثير من المسلمين فى تاريخهم المجيد فى مجال العلم والمعرفة. والأمثلة على المكانة المحورية التى لعبتها للغة فى حياة العرب لا تعد ولا تحصى.

* * *

وبالتوازى مع اضمحلال الازدهار الثقافى للدولة الإسلامى كان العرب يضيعون وقتا أكبر فى المحسنات البديعية وتزويق اللغة بدلا من البحث فى المعانى والأفكار الجديدة. وكان الاهتمام بظاهر اللغة من مؤشرات تخلف الحضارة العربية الإسلامية.

ونظرا للأهمية القصوى التى كان يوليها العرب للبلاغة فقد كان من المنطقى أن تكون المعجزة الوحيدة الثابتة التى أتى بها سيدنا محمد ﷺ تأييدا لدعوته هى القرآن. فقد هبط كتاب الله بلغة لم يعهدها العرب وفوجئوا بها تماما فسحرت ألبابهم وعاونت الرسول ﷺ على كسب المؤيدين والمريدين. فلكل أمة وسيلة إقناع تنبع من عاداتها وقناعاتها وخيالها الجماعى.

فالمعجزات التى أتى بها سيدنا عيسى كانت تناسب سكان فلسطين الفقراء الذين كانت ترعبهم فكرة الموت والفناء. فجاء المسيح بمعجزات تلهب مشاعر أهل زمانه ومكانه. فكان يبرىء

الأكمه والأبرص ويحيى الموتى. كما جعل مجموعة ضخمة من مريديه يأكلون ويشبعون بسمكة واحدة وقطعة خبز واحدة، يكفيان شخصا واحدا بالكاد.

أما عرب الجزيرة وخاصة أهل مكة فقد كان يسحرهم البيان وحسن تنميق الكلمات. وكان نجوم هذه المجتمعات هم الشعراء والرواة الذين كانوا يتفننون فى اختيار المفردات والمعانى ليخلبوا عقول سكان الجزيرة. وكانت اللغة هى أداتهم التى طوعوها للوصول إلى أغراضهم فصارت ركنا أصيلا فى حياة المجتمع البدوى والحضرى فى زمن الدعوة.

لذلك فعندما تقرأ الأنجيل تستشعر أن الناس فى عهد المسيح كانوا يؤمنون بالدين الجديد الذى كان يبشر به بفضل المعجزات التى كان يأتى بها عيسى. وكانت المعجزات من أهم أدوات نشر الديانة المسيحية بعد وفاة المسيح. أما عند ظهور الإسلام فقد كان تلاوة الآيات حسب ما نعلم من كتب السيرة هى التى تفتح للناس طاقة الإيمان وتشرح قلوبهم للدين.

ومعروف قصة دخول عمر بن الخطاب الإسلام عندما هجم على بيت أخته لردعها عن الدين الجديد فخارت قواه وانهزمت عزيمته العدوانية أمام بلاغة الآيات التى استمع إليها من سورة طه. وفى كل الأفلام والتمثيليات الدينية نلحظ كم كان يتأثر الناس بتلاوة الآيات الكريمة فتدمع عيونهم وتعتريهم حالة من الخشوع والانسياق النفسى لما يتلى عليهم.

فاختلاف الثقافة والطباع والعادات جعل لكل مجتمع مفاتيح خاصة لتقبل الدين الجديد. وبالنسبة للعرب فقد كانت البلاغة هى الباب الملكى الذى فتح أمام الإسلام مجتمعات مكة ثم المدينة ثم باقى الجزيرة العربية.

ومن غير شك أن نزعة إيثار الجنس العربى عند بنى أمية لعبت دورا كبيرا فى انتشار فكرة قدسية اللغة العربية. فقضية القضايا بعد انتقال الرسول الكريم ﷺ إلى الرفيق الأعلى كانت السلطة الدنيوية. وكان السؤال الذى يؤرق الجميع هو: من يحكم أمة الإسلام ومن أحق بخلافة سيدنا محمد ﷺ؟

وكان هذا السؤال وراء الفتن والحروب المتعاقبة التى عرفها العالم العربى الإسلامى دون انقطاع منذ حروب الردة حتى تفسخ الدولة الإسلامية الذى انتهى إلى سقوط بغداد فى أيدى المغول عام ١٢٥٨ .

وبعد أن نجح معاوية بن أبى سفيان فى وضع حد للفتنة الكبرى واستتبت له أمور الحكم على أثر اغتيال على كرم الله وجهه عام ٦٦١، عمل على تكريس ما كان معمولا به منذ وفاة الرسول ﷺ: أن يكون الحاكم من قريش وحدها دون غيرها. وكان من الطبيعى أن ينتج عن ذلك أفضلية وخيرية خاصة للجنس العربى وبالتالى للغة العربية.

واستغل أنصار النزعة الجديدة من الأمويين نزول القرآن الكريم بالعربية لفرض فكرهم على أعدائهم من كل صنف ولون ومنهم

الخوارج والشيعة وأهل العراق بصفة عامة. وكان معظم هؤلاء من أبناء الأمصار التى دخلت الإسلام بعد الفتح وكان معظمهم من غير الجنس العربى ومن خارج الجزيرة العربية.

وقد كتب الكثيرون عن مآثر اللغة العربية وتفوقها عن باقى لغات العالم وتعمدوا الربط الاصطناعى بينها وبين الدين حتى يكسبوها مكانة عليا، تجعل الناس يخشعون للغة بدلا من أن يخشعوا للمعانى التى نزل بها القرآن. وهناك مئات من أبيات الشعر فى هذا المعانى. وسأعطى نموذجا واحدا هو ما أورده الطهطاوى فى «تخليص الإبريز» :

ومن شرف الأعراب أن محمدا ... أتى عربى الأصل من عرب فصح
وأن المثانى أنزلت بلسانه ... بما نصته فى الخطاب من المدح

وفى كتاب «فقه اللغة» يقول الثعالبى (٩٦٢ ـ ١٠٣٨) بعد وفاة النبى ﷺ بما يناهز ٤٠٠ عام :

«**من أحب الله أحب رسوله المصطفى ﷺ، ومن أحب النبى العربى أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية التى بها نزل أفضل الكتب**». ثم يسترسل فى مقدمة كتابه قائلا إن : «**محمدا ﷺ خير الرسل والإسلام خير الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هى أداة العلم ومفتاح التفقه فى الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد، ثم هى لإحراز الفضائل إلخ..**»

وهذا الكلام يلخص النظرية التى تربط بين الدين واللغة والتى غذتها العصبية القبلية ورغبة العرب فى أن يكون لديهم سلاح قوى يواجهون به تدهور مكانتهم التى وصلت فيما بعد إلى حد الاضطهاد من قبل الأجناس غير العربية.

ويذكر هذا بمحاولات البعض اليوم الربط بين الدين والسياسة وإخضاع السياسة لمفاهيمهم الضيقة للدين، تحقيقا لمصالحهم الخاصة.

وتشعر دائما أن هناك جهدا يبذله البعض لإقناع الناس بأن العربية خلقت للدين الإسلامى وأن الدين سبب وجودها. لكن الحقيقة مختلفة عن ذلك. فكل الأبحاث العلمية تدل على أن اللغة العربية قد ظهرت قبل هبوط الوحى على سيدنا محمد بمئات السنين.

وكان العرب أنفسهم فى حياة الرسول ﷺ مقتنعين بقدم لغتهم. وكانت هناك عدة روايات عن أول من نطق بالعربية منها أن أول من تكلم بلغة الضاد هو إسماعيل بن إبراهيم وأنه نسى لغة أبيه وهى السريانية. وهناك رواية تؤكد أن أول من نطق باللسان العربى هو يعرب بن قحطان وهو أيضا أول من نزل مع أولاده بأرض اليمن ليتخذ منها موطنا لأهله. ولذلك سمى عرب جنوب الجزيرة العربية بالقحطانيين.

وقد أكد حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ هذه الرواية الأخيرة بقوله:

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا ، فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديما ما لكم غير عجمة كلام ، وكنتم كالبهائم فى القفر

وقد طرأت على اللغة العربية البدائية تطورات كبيرة حتى تبلورت وأصبحت هناك لغة أدبية مهذبة عرفت بلغة قريش. والأرجح أن لغة قريش كانت هى السائدة قبل الدعوة، والدليل على ذلك أن كل ما وصلنا من شعر جاهلى بهذه اللغة. وقد يجادل البعض بأن هناك شعراء كانوا يكتبون بلهجات مختلفة لكنها لم تحفظ بعد نزول القرآن واستبعاد كل اللهجات المغايرة للهجة قريش. والرد على هذا الطرح هو أن المعلقات التى اعتبرها العرب فى الجاهلية أفضل ما عندهم من شعر، جاءت كلها دون استثناء بلغة قريش التى نفهمها اليوم. ونستخلص من هذا أنه كان هناك شعراء يضعون شعرهم بلهجات مختلفة لكن أفضل الأشعار وأرقاها كانت بلغة قريش.

ولكن هل معنى هذا أن العربية هى لغة الدين وحده ؟ وهل معناه أن أى مساس بها يعد مساسا بالدين ؟

الإجابة عن هذين السؤالين هى شرط مسبق أساسى للاتفاق على كيفية ومدى التطوير اللازم للعربية فى بداية القرن الحادى والعشرين. والإجابة عن السؤالين عندى هى بالنفى القاطع. فقد أصبحت العربية هى لغة التعامل اليومى لأبناء إحدى وعشرين دولة من الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة. وأصبحت العربية تحتوى على كلمات وتعبيرات لا علاقة لها بالدين من قريب أو بعيد.

وإذا أردنا الحفاظ على اللغة العربية الفصحى بحيث تظل الأجيال القادمة قادرة على فهمها فالحل الوحيد هو إخضاعها لمتطلبات العصر كما حدث لكل لغات العالم الحية بدون استثناء.. أو باستثناء وحيد وهو اللغة العربية.

***

وفكرة قدسية اللغة وارتقاء الناطقين بالعربية فوق مستوى باقى بنى البشر هي فكرة تتناقض فى رأيى مع جوهر الإسلام والمضمون العميق للرسالة المحمدية. فرسالة الإسلام تقوم على المساواة الكاملة بين أبناء الإنسانية جمعاء. ولست فى حاجة لتكرار الأدلة الناصعة على ذلك سواء من آيات القرآن أو من السنة المكرمة.

أما فكرة اللغة المقدسة التى أنزلت على شعب مختار، فهى فكرة غريبة عن ديننا وإن كانت موجودة فى ديانات أخرى. ومنطق أن العرب هم الشعب المفضل لله تعالى هو منطق ينافى أعظم تعاليم الإسلام حول مساواة أبناء آدم عليه السلام.

وبلغة عصرنا، فإن دعاوى تفوق العرب على غيرهم من الأجناس واحتقار اللغات الأخرى غير العربية هى دعاوى عنصرية تحمل كل أفكار نظريات التفوق الجنسى التى ينبذها العالم الحديث وخاصة منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية. والمنطق الكامن وراء الفكر العنصرى هو أفضلية جنس على باقى أجناس العالم بسبب الصفات المتميزة اللاصقة بأهله وانتفاء هذه الصفات عن الأجناس الأخرى.

وتجد فى أدبيات الفكر العنصرى الغربى كلاما يبدو منطقيا عن تفوق الإنسان الأبيض والجنس الآرى. لكن هذا المنطق مغلوط من أساسه وقد رفضه سيدنا محمد ﷺ دون لبس فى خطبته بحجة الوداع وفى كل أحاديثه النبوية. فكيف نتقبله اليوم بعد مرور أكثر من ١٤٠٠ عاما من المفترض أننا نضجنا فيها عقليا ونفسيا وأصبحنا أكثر وعيا بحقائق العالم ؟

صحيح أن المدافعين عن تلك الأفكار فى العالم العربى اليوم يلبسونها أثوابا براقة جديدة كما يفعل دعاة العنصرية فى الغرب، لكن المعنى فى النهاية واحد وهو تفوق العرب واللغة العربية على باقى أبناء البشر ولغاتهم جميعا.

وإذا كانت معرفة اللغة العربية ليست مفروضة على بنى الإنسان فكيف نعتبرها نحن لغة فوق كل لغات العالم وبالتالى لا يمكن المساس بها ؟

وإذا أعملنا العقل الذى منحناه إياه الله تعالى لأدركنا أنه لو كانت اللغة العربية مقدسة وهابطة من السماء، لكان من الطبيعى أن يتحدث بها كل سكان الأرض. فكيف تكون العربية مقدسة فى حين أن ٩٦٪ من أبناء البشرية لا يعرفونها ؟ وكيف تكون مقدسة فى حين أن ٨١٪ من المسلمين أنفسهم يجهلونها جهلا تاما ؟

* * *

المسيحيون والعربية

من أخطر السخافات التى تستقى أصولها من فكرة قدسية العربية هى أن المسيحيين لا علاقة لهم بلغة الضاد، وأن المسلمين وحدهم هم ملاك العربية والعارفين بأسرارها وآدابها. ومن الغريب أن الاضطلاع بتدريس العربية بالمدارس يقتصر على المسلمين وحدهم دون المسيحيين بحجة أن الدين يقترن باللغة وأن مدرس اللغة لا بد أن يقوم بتدريس الدين كذلك. وقد استقرت هذه الأفكار فى الأذهان على أنها واقع لا يجادل وأصبح حجب تدريس العربية عن المسيحيين تكريسا لفكرة قدسية اللغة العربية.

لكن هذا الكلام لا يثبت أمام حقائق دامغة لا يمكن إنكارها. فالمسيحيون العرب لعبوا طوال حقب التاريخ دورا هاما فى الحفاظ على اللغة العربية وتطويرها، وفى إبراز كنوزها جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين. بل إن المسيحيين بدأوا هذا الدور قبل نزول القرآن على سيدنا محمد.

فالعربية بدأت قبل الإسلام بعدة قرون وتبلورت فى صورتها التى نعرفها الآن قبل نحو مائة عام من البعثة النبوية الشريفة. ففى العصر الجاهلى كان هناك شعراء على أرقى مستوى ينظمون الشعر كسلاسل الذهب ويلهبون المشاعر والعقول بأجمل المعانى.

وكان معظم هؤلاء من عبدة الأوثان، لكن بعضهم كانوا من المسيحيين وحتى من اليهود. ومن أشهر الشعراء اليهود السموأل الذى يعد من فطاحل الشعر العربى القديم.

وكان من أبرز شعراء ما قبل الإسلام عدى بن زيد النصرانى الذى كان يحظى بلقب «شاعر الحيرة الأوحد»، نظرا لمكانته الشعرية الضخمة وتفرد أسلوبه.

أما فى جيل المخضرمين، فإن واحدا من أعلى الشعراء مكانة كان مسيحيا وهو الأعشى. وقد ولد قبل عام ٥٧٠، ومات بعد ٦٢٥ بقليل حسب أفضل المصادر، وكان من أكثر العرب بلاغة وفصاحة لغوية.

وفى العصر الأموى لمع نجم عدة شعراء مسيحيين كان أبرزهم الأخطل والقطامى وكانا يدينان بالمسيحية. ويحظى الأخطل بمكانة متميزة فى تاريخ الأدب العربى. وفى الماضى كان رواة وذواقة الأدب مثل حماد الراوية وأبو عمرو بن العلاء يقدمونه على غالبية الشعراء المسلمين ويعتبرونه فحلا ذا نسب عربى صحيح ولغة عربية رصينة. وكان الأخطل يقول: «إن العالم بالشعر لا يالى، وحق الصليب ، إذا مر به البيت السائر الجيد ، أمسلم قاله أم نصرانى».

وقد قام الأب لويس شيخو بتأليف كتاب بعنوان «شعراء النصرانية فى الجاهلية» يعدد فيه من برزوا فى الشعر قبل ظهور الإسلام. لكن يبدو أنه من فرط حماسته جعل كل من لم يثبت من شعره مباشرة أنه وثنى يدين بالمسيحية ، وهو تجاوز غير مقبول علميا بطبيعة الحال. وبالتالى فقد جعل معظم شعراء العرب قبل الإسلام من المسيحيين. وكما جاء بمقدمة الكتاب، فقد تندر بذلك مارون عبود عندما قال عن لويس شيخو: «**سمعنا بكتابه شعراء النصرانية فاستقدمناه ، فإذا كل من عرفناهم من شعراء جاهليين قد خرجوا من تحت سن قلمه نصارى. كان التعميد بالماء فإذا به صار بالحبر**».

* * *

وكما أثبت فى كتاب «الداء العربى»، فقد هدم الإسلام الأسس القبلية التى قام عليها مجتمع الجزيرة العربية فى الجاهلية فاستقرت بعد ظهوره مثل مختلفة تجعل لتقييم الإنسان معايير جديدة تماما . لكنه سرعان ما عاد الفكر القبلى يطل برأسه من جديد وعادت العصبية القبلية تسيطر على العقول وخاصة مع تولى الأمويين مقاليد الحكم. وكانت العصبية العربية تعطى فرصة للشعراء من غير المسلمين للنبوغ فى مناخ يقيم الناس أساسا بمعيار العرق والانتماء العشائرى.

ومع العباسيين تغيرت الأمور وضعفت شوكة العصبية العربية شيئا فشيئا وخاصة منذ ولاية المعتصم (٧٩٥ ـ ٨٤٢) أى بعد نحو قرنين

من وفاة الرسول. وغلبت عندئذ الصبغة الدينية على الخلافة مع سطوة الأعاجم الذين كانوا يزايدون فى الدين نظرا لأنهم يستمدون قوتهم وشرعيتهم منه. فهم لا يستطيعون إثبات انتمائهم لقبائل عربية أصيلة ولا تجرى فى دمائهم قطرة عربية واحدة.

وفى هذه الظروف ظهر تيار الشعوبية الذى يناصب العرب العداء كرد فعل على احتكارهم للسلطة والثقافة ولكل الأمور العامة منذ بداية الدولة الإسلامية. وقد تعامل الأعاجم بحساسية شديدة مع اللغة العربية واضطروا لإعلاء شأنها بل والمزايدة فى ذلك نظرا لأنهم يريدون التأكيد على صحة إسلامهم وتمسكهم بالدين.

هنا أخذت اللغة تصطبغ بصبغة دينية مقدسة وبدأت فكرة أن العربية هى لغة القرآن وأنها للمسلمين دون غيرهم من أبناء البشر. وظهرت مقولة أن «العربية لا تتنصر» وفكرة أن النصرانية والبيان العربى لا يجتمعان.

ويروى بطرس البستانى فى كتاب «أدباء العرب» (ج ٣: الأندلس وعصر الانبعاث) أنه عندما طلب داود باشا صاحب العراق من الشاعر الشيخ صالح التميمى أن يعارض قصيدة للمعلم بطرس كرامة اعتذر بقوله:

عهدناك تعفو عن مسىء تعذرا ألا فاعفنا من رد شعر تنصرا

ولفظة «رد» هنا بمعنى معارضة. ومن الواضح أن صاحب هذا البيت لا يرضى بأن يقدم مسيحى على كتابة الشعر. فالشعر واللغة

فى نظره حكر على المسلمين وحدهم وليس من حق المسيحيين أن يخوضوا فيهما.

وعندما اكتملت سيطرة العناصر غير العربية على الدولة فى العصر العباسى، كادت دراسة اللغة تقتصر على المسلمين وحدهم نظرا لأنها تتم فى المساجد والمدارس الدينية وارتبطت بحفظ القرآن.

ولجأ المسيحيون إلى العلوم فبرعوا فيها وظهرت أجيال من الأطباء والفلاسفة وعلماء الرياضيات استعان بهم الخلفاء والأمراء. أما المسلمون فكادوا يغيبون عن ساحة العلم ودراسته فى مناخ من التردى الحضارى.

وقد حاول بعض المسيحيين محاكاة الكتاب المسلمين فنظموا القصائد والبديعيات فى مدح السيد المسيح وحوارييه باللغة العربية. وكان أشهر هؤلاء المطران جرمانوس فرحات والخورى نيقولاوس الصائغ صاحب أول بديعية مسيحية باللغة العربية.

* * *

ولم يقتصر إسهام المسيحيين فى الجاهلية على نظم الشعر والارتفاع باللغة العربية إلى مستويات أرقى. فقد لعبوا دورا فى غاية الأهمية فى بلورة الكتابة. وكما هو معروف فإن الأمية كانت غالبة على العرب فى جاهليتهم ولم يكن عرب البادية يشعرون بأهمية الكتابة. وكان أكثر من اهتم بالكتابة أهل اليمن وعرف خطهم باسم المسند الحميرى.

أما أهل الشمال فقد كانت الكتابة تستخدم فى أضيق نطاق لأسباب تجارية أو ما شابه ذلك وخاصة فى المدن الكبيرة مثل مكة والطائف ويثرب. ويتفق علماء اللغة على أن المسيحيين كانوا وراء تطور الكتابة وخاصة فى الحيرة وما جاورها. ويرجع المؤرخون أن القرشيين تعلموا خط الجزم من نصارى الحيرة فى رحلاتهم التجارية إلى العراق فحملوه إلى مكة فظهرت فيها الكتابة قبل الإسلام.

وكان من أوائل الذين عرف عنهم الكتابة بالعربية زيد بن حماد وعاش نحو عام ٥٠٠ ميلاديا، أى قبل نحو ٧٠ عاما من مولد الرسول ثم ابنه الشاعر عدى بن زيد، المذكور من قبل، وكلاهما مسيحيان.

* * *

وبعد قرون من هذا العهد البعيد أسهم المسيحيون فى أحد أهم الأنشطة الثقافية التى كان لها تأثير ضخم على اللغة وهى الترجمة. وهناك دراسات عديدة عن أثر حركة الترجمة وبيت الحكمة فى توهج ازدهار الحضارة العربية الإسلامية. لكن أثرها الهام فى اللغة لم يدرس حتى الآن بما فيه الكفاية.

وقد ظهرت بشائر الاتجاه إلى الترجمة عن اللغات الأخرى فى العصر الأموى، لكنها لم تتحول إلى حركة منتظمة إلا مع العباسيين حتى بلغت عصرها الذهبى فى عهد المأمون مع إنشاء بيت الحكمة.

وتكاد حركة الترجمة إلى العربية فى هذا العصر تقتصر على المسيحيين دون غيرهم. وكان معظم المترجمين الذين برعوا فى هذا العصر من السريان النساطرة، ومن بينهم أبناء بختيشوع وإسحق بن حنين بن إسحق ويوحنا بن البطريق ويوحنا بن ماسويه على سبيل المثال لا الحصر. وكان يوحنا بن ماسويه، طبيب الخلفاء، يتولى إدارة بيت الحكمة مما يدل على المكانة التى كان يحظى بها المسيحيون فى الحياة الثقافية فى هذا العصر المتألق حضاريا.

لكن أوسع المترجمين صيتا وأكثرهم نشاطا كان حنين بن إسحق (٨٠٨ ـ ٨٧٣) وهو من النساطرة. وقد ولد بالحيرة وعاش فى بغداد وكان نجم نجوم بيت الحكمة. كما كان من ألمع المترجمين أيضا ابن لوقا (٨٣٠ ـ ٩١٢) المولود فى بعلبك، وهو ملكى. كما برز يحيى بن عدى (٨٩٣ ـ ٩٧٤) الملقب بالمنطقى.

وكما هو معروف فقد ترجمت الكثير من أعمال فطاحل الفكر الإغريقى من اليونانية إلى السريانية قبل ظهور الإسلام وبعد ذلك. لكن عملية الترجمة إلى العربية لعيون الكتب الفلسفية والعلمية لم تبدأ بطريقة منهجية إلا فى منتصف القرن الثامن الميلادى.

ويورد كتاب «العرب من الرسالة إلى التاريخ» معلومات قيمة فى هذا المجال مستندا إلى مراجع عربية أهمها الفهرست لابن النديم وتاريخ الحكماء لابن القطفى.

وطبقا للمعلومات الواردة فى هذه المراجع فقد اضطلع بعملية الترجمة إلى العربية ٥٦ مترجما أفنوا حياتهم لأداء هذه المهمة،

وكانوا كلهم من المسيحيين. ويقول كتاب «العرب من الرسالة إلى التاريخ» إنه كان هناك ١٢ مترجما خلال النصف الثانى من القرن الثامن ثم ٣٠ خلال القرن التاسع وهو العصر الذهبى للترجمة ثم ١٤ فى القرن العاشر. وهو يصنفهم كالتالى: ٣٥ من النساطرة و١٠ من اليعاقبة و١٠ ملكيين ومارونى واحد.

وكان لهؤلاء إسهام ضخم فى إضفاء آفاق جديدة ليس للعقل العربى فحسب، وإنما للغة العربية كذلك. فقد اشتقوا كلمات جديدة على لغة العرب التقليدية، فأضفوا بذلك مزيدا من الحيوية والمرونة على العربية التى كانت آنذاك أرقى لغات العالم قاطبة.

وقد فتح هؤلاء المترجمون الباب على مصراعيه أمام علماء العرب الأفذاذ من أمثال الفارابى والرازى وابن سينا وغيرهم. فالتراكيب والكلمات التى استحدثها المترجمون خلال نقلهم من علماء وفلاسفة الإغريق ساعدت علماء العرب على صياغة اكتشافاتهم ونظرياتهم التى كانت فتحا فى كافة المجالات العلمية آنذاك.

***

وعاد المسيحيون إلى القيام بدور إيجابى فعال بعد ذلك بعدة قرون أيضا. وكان دورهم هذه المرة هو استقدام صناعة جديدة على المنطقة كان لها أبلغ الأثر على اللغة العربية، وهى الطباعة. وقد يتصور البعض أنهم جلبوا مطابع تطبع بالحروف اللاتينية. لكن الواقع أنهم اهتموا بجلب مطابع بالحروف العربية، وهى اللغة التى يحبونها ويعتبرونها لغتهم الأم. وقد يتصور البعض أيضا أن جلب

المسيحيين لمطابع عربية فى الشرق كان بهدف تجارى بحت وليس حبا فى اللغة العربية. لكن ذلك أيضا بعيد عن الحقيقة، حيث لم تكن المطابع آنذاك مدرة للكسب كما هو الحال منذ الستينيات من القرن الماضى.

والملاحظة الجديرة بالذكر هنا أن الطباعة بالحروف العربية نشأت فى أوروبا أولا خلال القرن السادس عشر على يد الإيطاليين بصفة خاصة. لكن ما يهمنا هنا إسهام المسيحيين العرب فى إدخال الطباعة وانتشارها فى العالم العربى.

ويرجح مؤرخو الطباعة أن أول نص طبع بالعربية كان «كتاب المزامير»، وتمت طباعته عام ١٦١٠ فى دير القديس أنطون قزحيا وكان من الرهبان الموارنة. وقد طبع باللغتين السريانية والعربية.

أما أول مطبعة عربية صرفة فى الشرق فقد أنشئت بحلب سنة ١٦٩٨ على يد البطريرك أثناسيوس الرابع. ويورد بطرس البستانى فى كتاب «أدباء العرب» (ج ٢) أنه قد تقلب مرارا بين الأرثذوكسية والكاثوليكية الملكية.

وكانت أول مطبعة عربية فى لبنان مطبعة مار يوحنا الصايغ من الروم الملكيين وقد أنشئت عام ١٧٣٢ فى بلدة الشوير ثم مطبعة القديس جاورجيوس وهو من الروم الأرثوذكس وأنشأها فى بيروت عام ١٧٥٣ . ومن الواضح أنه كانت هناك منافسة بين الملل المسيحية المختلفة للتأكيد على هويتهم العربية.

وفى عام ١٨٧٤ ظهرت فى بيروت المطبعة الأمريكية ثم المطبعة الكاثوليكية. وبعد ذلك أنشئت مطبعة المعارف سنة ١٨٦٧ للمعلم بطرس البستانى وخليل سركيس. وأنشأ هذا الأخير بعد ذلك المطبعة الأدبية عام ١٨٧٤ .

وفى مصر بدأت الطباعة مع الحملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١). وأنشأ محمد على مطبعة بولاق التى سميت المطبعة الأميرية. لكن أول مطبعة أهلية فى مصر كانت المطبعة القبطية التى أنشأها الأنبا كيرلس الرابع سنة ١٨٦٠ .

وقد انتشرت المطابع فى العالم العربى بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨). لكن الريادة فى هذا المجال كانت للمسيحيين فساهموا بذلك فى توفير الأداة اللازمة لنشر فكر النهضة ولازدهار الصحافة وما واكب ذلك من تطور حاسم فى اللغة العربية.

* * *

ثم جاء عصر النهضة فكان للمسيحيين مرة أخرى دور فى منتهى الأهمية فى بعث اللغة العربية وآدابها وكانوا ركنا من أهم أركان الانتعاشة الفكرية واللغوية فى القرنين التاسع عشر والعشرين. بل إن بعضهم كانوا من رواد حركة التطور الشعرى التى ظهرت على استحياء مع بداية القرن التاسع عشر. وكان من أشهر هؤلاء الرواد نيقولا الترك (١٧٦٣ ـ ١٨٢٨) وبطرس كرامة (١٧٧٤ ـ ١٨٥١) وهما من أبرز من سعوا لإحياء الشعر العربى وبعث تراثه العظيم.

وعاد المسيحيون إلى الصفوف الأولى فى الإبداع بأجمل وأرق القصائد بعد طول انقطاع بسبب التعصب اللغوى الذى عانوا منه طويلا وحرمهم من استخدام العربية بحجة أنها لغة المسلمين وحدهم. فظهر خليل مطران وبشارة الخورى الملقب بالأخطل الصغير وكانوا من أعظم شعراء العرب فى القرن العشرين.

كما تفجرت موهبة شعراء المهجر الذين اشتعل حنينهم لوطنهم العربى بعد أن هاجروا منه وبزغ نجم إيليا أبو ماضى وميخائيل نعيمة ورشيد سليم الخورى الملقب بالشاعر القروى.

وربما كان ألمع من هاجروا وتركوا بصمة على الأدب العربى جبران خليل جبران (١٨٨٣ ـ ١٩٣١)، صاحب كتاب «النبى» الذى يعد تحفة أدبية بمعنى الكلمة. وبرغم أن الجانب الأكبر من إبداعات جبران باللغة الانجليزية، إلا أنه ترك شعرا رقيقا سيظل محفورا فى التاريخ الأدبى العربى، ومن أشهره ما غنته المطربة اللبناية فيروز من قصيدة المواكب:

أعطنى الناى وغن ... فالغنا خير صلاه
وأنين الناى يبقى ... بعد أن تفنى الحياه

*

أعطنى الناى وغن ... وانس داء ودواء
إنما الناس سطور ... كتبت لكن بماء

* * *

أما دورهم فى إنشاء وتطوير فن الصحافة فهو معروف للجميع. وقد أسهموا جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين فى تطوير اللغة العربية وتطويعها لمقتضيات الأخبار والمقالات التى نشروها فى صحفهم.

ومن أقدم دور الصحف التى لا زالت تلعب دورا متميزا فى الصحافة العربية «الأهرام» و«دار الهلال». وقد أنشأ الأهرام بالأسكندرية فى سنة ١٨٧٦ الأخوان سليم وبشارة تقلا وهما مسيحيان، ثم نقلاه إلى القاهرة عام ١٨٩٢ .

أما مجلة الهلال فقد أنشأها عام ١٨٩٢ جرجى زيدان، وهو مسيحى لبنانى نزح مثل الأخوين تقلا من لبنان إلى مصر بسبب الاضطهاد العثمانى.

وفى الأسكندرية صدرت صحيفة «المحروسة» عام ١٨٨٠ على يد أديب إسحق وسليم النقاش. أما المقطم التى انطلقت من القاهرة سنة ١٨٨٩ فقد أسسها ثلاثة مسيحيين هم يعقوب صروف وفارس نمر وشاهين مكاريوس. وفى القاهرة أيضا أنشأ نقولا شحادة «الرائد المصرى» عام ١٨٩٦ .

وفى عام ١٩١٠ اشترك مسلم ومسيحى هما الشيخ أمين تقى الدين وأنطون الجميل فى إصدار مجلة سياسية أدبية باسم «الزهور».

وفى لبنان، كانت مجلة «الجنان» التى أنشأها المعلم بطرس البستانى عام ١٨٧٠ من أوائل المجلات السياسية الأدبية التاريخية

فى الوطن العربى. وأنشأ ابنه سليم البستانى «الجنينة» التى كانت أول جريدة منتظمة شبه يومية فى لبنان عام ١٨٧١ .

وفى دمشق، أنشأ سليم حنا عنجورى سنة ١٨٨٧ مجلة «مرآه الأخلاق» وأنشأ جورج متى وجورج سمان سنة ١٩٠٠ مجلة الشمس».

وفى بغداد ظهرت مجلة «زهيرة بغداد» للآباء الكرمليين عام ١٩٠٥ . وحتى فى الموصل أنشئت مجلة «إكليل الورود» للآباء الدومنيكان عام ١٩٠٢ .

ومن الواضح أننى اقتصر هنا على الإسهام المسيحى وحده. فهناك دراسات كثيرة عن تاريخ الصحافة من الممكن للقارىء أن يطلع عليها للإلمام بهذه الصناعة التى كان لها أبلغ الأثر على اللغة العربية.

ولم يكتف المسيحيون بالمشاركة فى إصدار الصحف والمجلات فى العالم العربى. فقد كانوا سباقين أيضا فى إنشاء الصحف العربية فى الخارج.

ومن الرواد الأوائل فى هذا المجال رزق الله حسون الذى بادر عام ١٨٥٥ بإصدار جريدة «مرآه الأحوال» فى الآستانة عاصمة الخلافة الإسلامية.

وأصدر أديب إسحق فى باريس مجلة «مصر القاهرة» عام ١٨٧٩، تلاه خليل غانم عام ١٨٨١ بإصدار «البصير» فى عاصمة النور.

أما فى أمريكا فقد أصدر اللبنانيون فى المهجر عدة صحف فى أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين لا يتسع المجال لاستعراض أسمائها هنا.

وعندما انفتح العالم العربى على الغرب فى عصر النهضة كان المسيحيون اللبنانيون سباقين إلى ترجمة عيون الأدب الفرنسى والانجليزى خاصة إلى العربية، تماما كما حدث فى أوج ازدهار الدولة العباسية. وكان أشهر هؤلاء سليم البستانى ونجيب طراد ونيقولا رزق الله وطانوس عبده.

كما كان لبعض المسيحيين إسهام لا يستهان به فى مجال اللغة والنحو من أمثال بطرس البستانى والخورى نعمة الله باخوس ونصيف اليازجى وله كتب فى شرح النحو والصرف مثل «نار القرى فى شرح جوف الفرا» و «الجمانة فى شرح الخزانة».

وهناك أدلة لا حصر لها على عشق المسيحيين للعربية ودفاعهم عنها فى مواجهة كل محاولات التشويه.

ففى بداية القرن العشرين ظهرت بالعراق مجلة «لغة العرب» التى نذرت نفسها لحماية العربية من أية شوائب وللإبقاء على نقاء اللغة. وكان صاحبها الأب أنسطاس الكرملى.

كما أصدر إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) كتابًا بعنوان «لغة الجرائد» يحمل فيه بعنف على لغة الصحافة حرصًا منه على لغة الضاد.

ويتضح من هذا الاستعراض السريع مدى إسهام المسيحيين فى دعم وتطوير اللغة العربية فى كافة العصور وكل المجالات، من نشأة الكتابة إلى الأدب إلى الترجمة إلى الطباعة إلى الصحافة، جنبا إلى جنب مع إخوانهم المسلمين.

* * *

المتنبى يخاف من الإعراب

لا أظن أن هناك شعبا فى العالم يعشق لغته مثل العرب. وهناك أسباب عديدة تجعل للغة مكانة خاصة فى الوجدان العربى. فهى أولا التى نزل بها القرآن الكريم. كما أنها اللغة التى خلف لنا بها السلف تراثا أدبيا وفنيا يهز أدق أوتار النفس البشرية. ولغتنا جميلة بالفعل وتتميز بموسيقية تلقائية تطرب لها الآذان حتى لمن لا يفهم المعانى بدقة. كما أنها لغة اشتقاقية على عكس غالبية لغات العالم القديمة والحديثة وكلها لغات تركيبية. وميزة اللغة الاشتقاقية المرونة والسهولة فى استخراج الكلمات والتراكيب الجديدة. وصدق حافظ ابراهيم حين قال على لسان العربية :

أنا البحر في أحشائه الدر كامن ... فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتي

وكل هذه المقدمات لا بد أن تؤدى إلى نتيجة منطقية واحدة: هى تمسك العرب بالتعامل بهذه اللغة الفصحى التى يعشقونها ورفضهم لأى وسيلة أخرى للتعبير عن أنفسهم. لكن الواقع كما نعلم عكس ذلك تماما.

وهناك سؤال بسيط لا نطرحه على أنفسنا لأن ثقافتنا تملى علينا عدم الاقتراب من مناطق نعتبرها محظورة بل محرمة على التفكير. والسؤال ببساطة هو: كيف هجر العرب هذه اللغة طوعا على الرغم من عشقهم لها وتمسكهم بها ؟ لماذا لا يتكلم الناس فى مصر أو فى العالم العربى باللسان الفصيح ؟ لماذا أصبحت الفصحى وكأنها لغة إجبارية تستخدم فى تحصيل العلوم والكتابة الرسمية فقط ؟

فنحن نستخدم فى تعاملاتنا اليومية على كل المستويات اللهجة الدارجة سواء فى مصر أو فى أى بلد عربى آخر. وحتى فى مكة المكرمة مهد الرسول وينبوع اللغة العربية الأصيل يتحدث الناس لهجة دارجة تبعد عن العربية بقدر ما تبعد عنها اللهجات المصرية والسورية. وإذا كانت العربية لغة مقدسة كما يدعى البعض فكيف نبذها مسلمون مؤمنون بدينهم ويقيمون فرائضه ولا يدخرون وسعا فى إرضاء ربهم ؟

وقد وصل الأمر إلى أن العربى كان يفضل فناء الدنيا قبل فناء لغته كما جاء على لسان الشاعر المهجرى:

لغة يهون على بنيها أن يروا ... يوم القيامة قبل يوم وفاتها

ومع كل ذلك، فلا يوجد عربى واحد فى الشرق أو الغرب يتعامل بالفصحى بتلقائية ولممارسة حياته اليومية. فمن يتحدث الفصحى يتكلف ما هو ليس فى طبيعته ويبذل مجهودا للتعبير عن نفسه بها وعادة ما يخطىء فى كل جملة ينطق بها.

كيف نفسر هذا التناقض الواضح بين المقدمات والنتيجة الواقعية التى نعرفها جميعا ؟

ستجد بالتأكيد بعض العقول الملتوية التى ستقدم تبريرات غير منطقية تفرضها على الجميع بأسلوب الإرهاب الفكرى.

لكن الإجابة المنطقية الوحيدة هى أن العربية من الصعوبة والتعقيد بحيث جعلت العرب يعرضون عنها بالفطرة للإعراب عما فى أنفسهم ومن أجل التفاهم فيما بينهم.

الإجابة المنطقية الوحيدة، مهما كانت قاسية على النفس، هى أن الفصحى لا تلائم مقتضيات التفاهم ونقل المعلومات وتفسير حقائق العالم الذى يعيش فيه العرب، سواء فى مصر أو السعودية أو سوريا أو الجزائر أو فى أى بلد عربى آخر. وظهرت اللهجات كبديل تلقائى على لسان الشعوب* العربية لصعوبة استخدام العربية فى حيز التعامل اليومى.

ليس عندى أدنى شك فى أن سكان كل البلدان العربية لم يتخلوا عن العربية ببساطة أو عن طيب خاطر. وهم لم يعرضوا عن لغة الضاد منذ قديم الزمان ولم يلجأوا إلى لهجات بديلة عن طريق الصدفة. فلا بد أنهم شعروا بالعجز الحقيقى عن التعبير عن أنفسهم باللغة التى يحبونها ويشعرون تجاهها بالتبجيل والاحترام لأنها اللغة التى نزل بها كتابهم المقدس.

وقد ترجم أمير الشعراء ولع العربى بلغته فى قصيدة ألقاها عند سفح الأهرام ترحيبا بالكاتب اللبنانى أمين الريحانى حيث قال:

إن الذى ملأ اللغات محاسنا جعل الجمال وسره فى الضاد

* * *

ومع تعاقب الأجيال تم تخليق اللغات العامية فى مصر والشام والعراق وشمال أفريقيا من العربية الفصحى من ناحية واللهجات التى كانوا يستخدمونها قبل تعريب بلادهم من ناحية أخرى.

وللأسف أننا لا نعرف بطريقة علمية كيف كان يتحدث الناس خلال الحقب المختلفة فى التاريخ العربى لأن الموروث المدون يقتصر على الفصحى إلا باستثناءات نادرة. قد يفتى البعض بأننا على يقين من كيفية كلام العرب فى الماضى البعيد، لكن مثل هذا التأكيد أقرب إلى «الفهلوة» منه إلى المعرفة العلمية.

الشىء المؤكد هو أن العرب فى كل مكان هجروا الفصحى ولجأوا إلى أساليب أخرى للتفاهم فيما بينهم. ومن هذا المنطلق علينا أن نبحث فى أسباب البعد عن لغة يعشقها العرب وانتجت أجمل المعانى الشعرية والأدبية التى يدرسونها فى المدارس والجامعات.

فاللغة التى يختارها الناس للتعامل هى الأقرب إلى العقل وإلى النفس وليست اللغة التى يتكلف الإنسان جهدا بالغا للتعبير عن نفسه بواسطتها.

والدارسون لتطور الحضارات أدركوا أن اللغة معاكسة التوازى مع التقدم الحضارى. فكلما وصلت إحدى الحضارات إلى درجة من

التعقيد والتطور الراقى كلما شعرت بالاحتياج الفطرى إلى لغة سهلة تعبر عنها. وهذا هو سر الجهود المستمرة فى تبسيط اللغات الانجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من لغات الدول المتقدمة. وكلما ازداد التقدم كلما ازدادت الحاجة إلى تبسيط اللغة.

وبعيدا عن النفاق، فإن علينا أن نطرح على أنفسنا مجموعة من الأسئلة التى نرفض عادة حتى التفكير فيها، ناهيك عن طرحها ومناقشتها على الملأ. وأول هذه الأسئلة هو عدد العرب القادرين على فهم التراث الشعرى العربى، حيث أن الشعر هو أهم ما تركه العرب من آثار فنية وثقافية. وبمعنى آخر من يستطيع أن يقرأ قصيدة للمتنبى أو ابن الرومى ويفهم معانيها فهما معقولا ؟ كم شخصا قادرا اليوم على القراءة يستطيع أن يمسك بديوان البحترى أو أبى تمام ويتذوق ما به من أشعار ؟

وإجابتى عن هذا السؤال هى أن النسبة القادرة على هذا لن تزيد بحال من الأحوال عن واحد فى المائة من أبناء الشعوب العربية فى أحسن التقديرات. ومن يعترض على هذه النسبة ويرفع شعارات حماسية عليه أن يقوم بتجربة عملية على من حوله من الأشخاص العاديين أى غير المتخصصين فى الأدب أو اللغة العربية. وحتى لو شملت هذه التجربة خريجى أفضل الجامعات فى الطب أو الهندسة أو التجارة أو حتى كليات الآداب باستثناء قسم اللغة العربية، فإن النتيجة لن تزيد عن نسبة هزيلة للغاية أؤكد وأنا مطمئن أنها ستقل عن ١ فى المائة.

وإذا أخذنا فى الاعتبار نسبة الأمية المرتفعة فى العالم العربى، والتى تزيد اليوم عن ٥٠ ٪، سنجد أن افتراض ١ ٪ الذى ذكرته قد يكون أعلى كثيرا من الواقع. فأغلب الظن أن نسبة من يفهمون الشعر العربى، وهو العمود الفقرى لتراثنا الثقافى، لن تزيد عن نصف فى المائة أو أقل من ذلك. ربما ارتفعت قليلا فى دول تعداد سكانها ضئيل، وحصل أبناؤها على قسط من التعليم أكثر من غيرهم. لكن هذه النسبة لن تزيد بحال من الأحوال عن ٢ أو ٣ ٪ على أكثر تقدير وفى عدد ضئيل جدا من الدول. إنما المتوسط العام لن يزيد عن نصف فى المائة.

* * *

ولا يقتصر الأمر على الشعر وحده، فلو عرضنا كتاب «الأغانى» على المتعلمين من غير المتخصصين فستكون نسبة الذين يفهمون الكتاب بصورة مرضية والقادرين على إدراك معانيه وتذوق ما أبدعه الأصفهانى نسبة ضئيلة للغاية.

والغريب أننى عندما طرحت هذا السؤال على البعض أبدى غضبه من الطرح ذاته. وقد تهرب من الإجابة غالبية من طرحت عليهم السؤال ورفضوا أن يقروا بحقيقة لا تقبل أى شك، وهى أن الغالبية العظمى من المصريين والعرب غير قادرين على استيعاب الشعر القديم والأدب الكلاسيكى دون شرح مستفيض.

ولا أفهم لماذا نتهرب من الحقيقة ونكره أن نرى الواقع كما هو. وكما حاولت أن أبرز فى كتاب «الداء العربى»، فإن من أخطر عيوب

العقل العربى الإصرار على رفض مواجهة الواقع والميل إلى الاستسلام الإرادى للأوهام. فمن أكثر ما يزعجنا أن يخرج علينا من يكشف المستور الذى يعرفه الجميع لكن الكل يتكتمه ويرفض أن يجهر به.

والغالبية العظمى من القادرين على فهم أو تذوق الشعر العربى القديم ينتمون على الأرجح للجامعات ومراكز البحث الأكاديمى والأساتذة وغيرهم ممن وهبوا حياتهم للغة والأدب. أما الباقون ففهمهم للشعر تقريبى ويدركون المعنى العام للبيت لكنهم بالتأكيد لا يدركون معانيه الحقيقية والعميقة.

ولا أعتقد أنه يوجد شخص واحد فى العالم العربى يستطيع أن يدعى أنه قادر على فهم كل المفردات ولا تفوته كلمة واحدة فى الشعر العربى القديم. فهل يعقل أن يستوعب عقل واحد ما يقارب ٢ مليون كلمة مهما أوتى من ذاكرة حديدية ؟ مثل هذا الكم الهائل فى حاجة إلى كومبيوتر للحفظ والتخزين. وقد وُجدت القواميس فى كل اللغات لهذا السبب بالذات وهو استحالة أن يستوعب عقل واحد معانى كل الكلمات فى أى من لغات العالم. والمشكلة كما قلت هى أن القواميس اللغوية غير متوفرة فى العربية بالسهولة وبالأسلوب العملى الذى نجده فى اللغتين الانجليزية والفرنسية بصفة خاصة.

وتلاميذ المدارس يكتفون بحفظ الشعر دون فهمه لمجرد النجاح بالامتحان. وهم يسرعون بنسيان ما حفظوه بمجرد الخروج من قاعة الامتحانات وكأنه «هم وانزاح» من على كاهلهم.

وأعترف أننى كنت من هؤلاء. فقد كنت أحفظ شعرا كثيرا نسبيا من أيام المدرسة لكننى لم أكن أفهمه. وعندما استرجعت هذا الشعر بعد بلوغ سن النضج الذهنى، أدركت المعانى التى كانت خافية عنى تماما فى السابق. والغريب أننى كنت قد نسيت هذا الشعر ولم أكن أتخيل أنه لازال كامنا فى أعماق ذاكرتى. لكنه كان بالفعل مخزونا فى العقل الباطن حتى تم استحضاره عندما أعدت قراءته وأنا كبير.

والأرجح أن الغالبية العظمى من المصريين والعرب لا يتاح لهم أن يستعيدوا من أعماق الذاكرة أبيات الشعر التى حفظوها فى مرحلة الدراسة. ولولا والدى رحمه الله الأستاذ محمد مفيد الشوباشى، ولولا احترافى الكتابة لظل الشعر الذى حفظته مدفونا فى مجاهل اللاوعى بذاكرتى ولم يظهر أبدا إلى السطح.

وأستخلص من هذا أن الذين يجيدون العربية إجادة تسمح لهم بفهم التراث، هم الذين أفنوا حياتهم فى تعلم اللغة والدين. وهؤلاء مطلوبون فى مجتمعاتنا، لكنه لو فعل الجميع مثلهم فلن تكون لدينا هياكل البنية الأساسية للدولة لأن هؤلاء غير قادرين على استيعاب العلوم الدنيوية.

وأعلم أن مثل هذا كلام وتلك الاستفسارات ستثير قلق وحفيظة الكثيرين وسيجد هؤلاء تبريرات وتفسيرات غير منطقية، لكنها ترضى قناعتهم العمياء بالارتباط العضوى بين الشعوب العربية

ولغة الضاد. وبالتأكيد أن هذه العلاقة العضوية موجودة بالفعل، لكنها ليست كما يدعيه حراس العربية وحماة تراث السلف.

* * *

وصعوبة اللغة العربية ليست ظاهرة جديدة يعانى منها الإنسان العربى فى هذا الجيل وحده. فهى سمة قديمة لها جذور فى أبعد عصور التاريخ العربى.

ومن يجادل فى ذلك عليه أن يتأمل بيتا للمتنبى والظروف التى كتب فيها هذا البيت. يقول فارس العربية:

وكلمة فى طريق خفت أعربها فيهتدى لى فلم أقدر على اللحن

ويروى لنا محمود محمد شاكر ملابسات هذا البيت فى كتابه «المتنبى» فيقول إن الشاعر الكبير كان قد اضطر للهروب من «حمى جرش» خوفا من بطش شخص يدعى ابن كروس وصفه بالأعور. وقد اقتحم الشاعر كما يقول الكتاب ظلمات البادية متوجها إلى أنطاكية. ونظم قصيدة لدى وصوله إلى بر الأمان يمدح بها أبا عبد الله الخصيبى الذى كان ينوب عن أبيه فى مجلس القضاء بأنطاكية كما يقول محمود شاكر.

لكن المهم بالنسبة لنا هنا هو المعنى الموجود فى هذا البيت الوارد بالقصيدة.

فالمتنبى يقول إنه خاف خلال هروبه أن ينطق بلغة عربية سليمة خوفا من أن يكتشف الناس هويته. وكلمة اللحن هى الخطأ فى

إعراب الكلمة وبالتالى فى نطقها وتشكيلها. أى أن النطق بلغة سليمة يدل على أن المتكلم شخص غير عادى وخارق للعادة. فالنطق الخطأ إذا هو القاعدة. ومن لا يخطىء هو الاستثناء. فإذا نطق المتنبى دون خطأ فمن الممكن أن يُكشف ويعرف أنه شخص ينتمى إلى الصفوة.

وإذا صدقت نظرية علوية المتنبى فإن خوفه من افتضاح أمره كانت هاجسا يؤرقه على الدوام. لكن المهم عندنا هنا هو أن المتنبى يقر بأن من كان يتحدث العربية فى هذا العصر بلا أخطاء كان يعد شخصا غير عادى.

فكيف نلوم الناس اليوم على عدم إلمامهم باللغة وجهلهم بقواعدها ؟ فمن الواضح أن عدم معرفة اللغة كان سمة دائمة فى العالم العربى. ونحن نتخيل فيما يبدو أن الناس فى الماضى وخاصة فى عصر الرسول والخلفاء الراشدين ثم فى العصرين الأموى والعباسى كانوا كلهم سيبويه أو المتنبى أو أبا تمام. وهذا غير صحيح على الإطلاق. فصعوبة اللغة جعلت إجادتها التامة دائما صفة من صفات الخاصة التى كانت تحفظ القرآن وتقرأ كتب التراث.

أما العامة أى غالبية الشعب العربى أو الخاضع لسلطان الأمة الإسلامية فقد كانت معرفتهم باللغة معرفة محدودة تسمح لهم بالتفاهم وربما القراءة والكتابة، لكنها ليست على أيه حال معرفة رصينة وسليمة لقواعد اللغة.

وإذا كان الشباب يتكبد أعتى المشاق فى بداية القرن الواحد والعشرين لتعلم قواعد اللغة العربية، فعلينا أن نلتمس لهم العذر، خاصة إذا علمنا بما أفصح عنه أحد ألمع بلغاء العرب فى العصر الحديث وهو الإمام محمد عبده. ففى المجموعة الكاملة التى جمعها الأستاذ محمد عمارة يقول محمد عبده حرفيا فى كتاب شرح النحو عن تعلمه لقواعد اللغة: «**فحملنى عدم الفهم على الهرب من طلب العلم لتمكن اليأس من نفسى**». فإذا كان محمد عبده شخصيا قد تعذب منذ نحو مائة وخمسين عامًا بسبب قواعد العربية فماذا عن شبابنا اليوم ؟

* * *

وقد أدرك رفاعة الطهطاوى صعوبة اللغة العربية عندما بدأ يتعلم الفرنسية خلال بعثته لباريس التى دامت من ١٨٢٦ إلى ١٨٣١ . وخلال هذه السنوات الخمس استطاع الطهطاوى الإلمام بالفرنسية وقواعدها إلى درجة مبهرة جعلته قادرا على الكتابة بها دون أخطاء فى قواعد اللغة أو الإملاء. وقد وقعت على خطاب محفوظ بأحد المتاحف الفرنسية فى باريس بخط يد الطهطاوى: وبصراحة فقد ذهلت لأن الخطاب ليس به خطأ واحد فى اللغة. وأعتقد أن هذا لا يدل فقط على عبقرية الطهطاوى، لكنه يدل كذلك على السهولة النسبية لتعلم الفرنسية خاصة بالنسبة لشخص غريب عن الثقافة الأوروبية. فتعلم الفرنسية قد يكون سهلا على شخص إيطالى أو إسبانى نظرا لتقاربها مع لغته الأم. لكنه صعب جدا بالنسبة لعربى تربى على لغة سامية.

ويقول رفاعة فى «تخليص الإبريز» عن الفرنسية : **كان لسانهم من أشيع الألسن وأوسعها بالنسبة لكثرة الكلمات غير المترادفة لا بتلاعب العبارات والتصرف فيها ولا بالمحسنات البديعية اللفظية فإنه خال منها** ومن الواضح أنه يقارن الفرنسية بالعربية العامرة بالمترادفات والتلاعب بالعبارات والمحسنات البديعية».

المشكلة هى أن من يرفضون بشدة أى تطوير ملموس فى اللغة هم أنفسهم الذين يرفضون بضراوة أى تجديد فى كل مظاهر الحياة. وهم الذين يقفون فى مواجهة كل محاولة جادة للخروج من مأزق التمسك بالماضى على حساب الحاضر والمستقبل. وهم أنفسهم الذين يفرضون مرجعيات سلفية لكل قضايا المجتمع ومشكلاته المستعصية. وهؤلاء يقحمون الدين الحنيف فى كل شىء، ليس فى السياسة فقط لكن فى التعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية والقوانين وقواعد السلوك العام. وهم يعمدون إلى ترويع الناس معنويا من أجل الحفاظ على القديم الذى يناسب مصالحهم.

وقد نجح هؤلاء فى إسكات كل صوت ينادى بالتطوير بتوجيه أشنع الاتهامات إليه وأولها بأنه معاد للدين وكافر بالله. وقد أصبحت هذه الاتهامات المخيفة جاهزة على ألسنة حراس الماضى وليسوا فى حاجة إلى سند من المنطق للإطاحة بمن يفتح فمه للاعتراض. وأصبح الإنسان متهما عندهم بالكفر حتى يثبت إيمانه.

***

وفى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» الصادر عام ١٩٣٧ ينبه الدكتور طه حسين إلى خطورة تحجر اللغة العربية ويدعو إلى إصلاح اللغة بصورة عاجلة. وفى الفصل الذى يحمل رقم ٣٧ بطبعة دار المعارف الصادرة عام ١٩٩٦ وتحت عنوان: «ما اللغة العربية التى تتولى الدولة تعليمها» يقول طه حسين إن إصلاح اللغة «**أصبح ضرورة من ضرورات الحياة بل من ضرورات الدين نفسه**».

لكن المفارقة هى أن عميد الأدب العربى لا يبدأ بنفسه. فهو يكتب بلغة بلاغية رائعة الجمال، لكنها لغة ليست فى متناول القارىء العادى سواء فى عصره أو فى بداية القرن الحادى والعشرين. واللغة التى استخدمها طه حسين فى هذا الكتاب وفى كل ما كتب بعيدة كل البعد عما نادى به من ضرورة تيسير اللغة وتقريبها إلى العامية. ومع الاعتراف بجمالها الكلاسيكى فإن لغة طه حسين أقرب كثيرا إلى لغة الجاحظ منها إلى اللغة التى ينادى باستخدمها. وقد حاول فى أحد كتبه تطبيق رأيه فى كتابة اللغة كما تنطق لكنها كانت تجربة فاشلة ولا يعرف عن هذا الكتاب إلا المتخصصين دون غيرهم.

***

ومن أبرز الأمثلة على التحجر الذهنى الذى يعكسه بجلاء تحجر لغوى فى الألفاظ والمعانى ما ظل يصنعه الشعراء العرب لقرون طويلة. فقد كان تقليد القديم شرطا حديديا للإبداع الشعرى وكل ما خرج عن السلف كان يعتبر محاولات شيطانية غير مقبولة. فكان الشعراء حتى العصر العباسى كثيرا ما يضطرون إلى البكاء على

الأطلال والتغنى بالناقة وبالبيداء وبالرمح فى عصور اختفت فيها كل هذه العناصر من حياتهم. فالبدو الرحل كانوا يذرفون الدموع على الأطلال التى تركها قوم حبيبتهم بسبب الترحال من مكان إلى آخر بحثا عن الماء وظروف معيشية أكثر ملاءمة. أما شعراء العصر الأموى والعباسى الأول فكانوا فى معظمهم يعيشون فى المدن أو القرى التى لا يحتاجون فيها إلى الترحال وكانت حبيباتهم تسكن مكانا ثابتا ولا يحتاج أهلهن إلى التنقل.

ومع ذلك فقد كان الشعراء فى ذلك العصر يذعنون لإرادة التيار المحافظ الغالب مع أنهم لا هم يعيشون فى الصحراء ولا يركبون الجمال ولا يستخدمون الرماح. لكنهم ظلوا مضطرين لمحاكاة القدماء بنفس المعانى ونفس الكلمات فجاء شعرهم مضحكا ومحزنا فى الوقت ذاته.

وكان الشعراء المتمردون على القديم يلقون ألوانا من العنت تصل إلى حد الضرب والطرد والحبس والاتهام بالزندقة. كل هذا بفعل من يدعون حماية الدين وحماية اللغة من عدوان «المارقين». لكنه إذا كانت العربية قد نالت شيئا كبيرا من التطوير فذلك بفضل هؤلاء «المارقين» الذين اجترأوا على المحرمات وشعروا بضرورة كسر القوالب الجامدة المفروضة من قبل حراس الماضى فى كل زمان.

وبرغم الإرهاب الفكرى لبعض حماة القديم آنذاك استطاع الشعراء الفكاك فى كثير من الأحيان من إسار الماضى وبدأوا يعبرون شيئا فشيئا عن بيئتهم وعصرهم.

ويذكرنى ما لاقاه هؤلاء الشعراء من عنت ومعاناة على يد التيارات المحافظة على القديم، بالذين يعيشون بيننا اليوم ويريدون فرض أفكار لم يعد لها ما يبررها فى عالم القرن الحادى والعشرين كما يصرون على عدم المساس باللغة التى ورثناها من السلف وآن الأوان أن نطورها حتى نجارى عصرنا الحالى.

فلا توجد دولة كبيرة واحدة كما قلت لا تبذل الجهود المستمرة من أجل تطوير لغة التعبير التى يستخدمها أبناؤها بهدف مواكبة التطور الطبيعى الذى يفرض نفسه على المجتمعات.

أما نحن العرب فنعاند سنة التطور ونصادر المستقبل لمصلحة الماضى. والنتيجة أن غالبية العرب يخطئون فى لغتهم الأم ولا يلمّون بقواعدها الأساسية.

وما أستخلصه مما سَبق ليس أن الشعوب العربية شعوب جاهلة وعاجزة عن استيعاب لغتها الأم. لكن ما استخلصه هو أن اللغة العربية لم تتطور كما ينبغى لتلائم العصر الذى نعيش فيه وأنه آن الأوان لتحديثها. ومن العبث فعلا التمسك برفض التغيير على أساس دعاوى واهية تلعب دورا رئيسيا فى تخلف العقل العربى.

* * *

[illegible]

[illegible]

[illegible]

شيزوفرينيا لغوية

لعل أدق توصيف للحالة اللغوية التى يعيشها الإنسان العربى منذ قرون طويلة هو ما يطلق عليه فى علم النفس «شيزوفرينيا». فهو عندما يتحدث على سجيته فى منزله وفى عمله وفى الشارع والسوق، يستخدم اللهجة الدارجة السائدة فى بلاده. لكنه عندما يقرأ الصحف أو يستمع إلى نشرات الأخبار فى الإذاعة والتلفزيون وعندما يقرأ الكتب أو يكتب طلبا أو مذكرة فى عمله، فإنه ينتقل إلى لغة أخرى مختلفة هى العربية الفصحى.

ولو عرّفنا العربية بأنها الفصحى وحدها فسنقع فى مفارقة غريبة وهى أن أكثر من نصف أبناء الشعوب العربية ليسوا عربا. فمن المعروف أن أكثر من ٥٠ ٪ من سكان العالم العربى يجهلون العربية الفصحى. ولو عرّفنا العربية بأنها اللهجات التى تتحدثها الشعوب العربية نكون قد وقعنا فى خطأ كبير.

ولأننى أعيش حالة الشيزوفرينيا اللغوية، مثلى مثل ملايين العرب، كنت أتصور أن الفارق بين الفصحى واللهجات ضئيل للغاية

وأن من يعرف أحداهما وخاصة الفصحى يعرف الأخرى أو على الأقل لا بد أن يفهمها. لكن التجربة وخاصة مشاهدتى للأجانب الذين يتعلمون العربية أقنعتنى بمدى الهوة بين العامية والفصحى. فالأجانب الذين يجيدون الفصحى إجادة تامة وعكفوا سنوات من عمرهم على دراسة لغتنا يفغرون أفواههم عندما أحدثهم بالعامية المصرية ولا يفهمون شيئا مما أقول.

إذا فكل عربى متعلم يتعامل فى حياته اليومية بلغتين مختلفتين حتى وإن جمعتهما مفردات عديدة وبعض القواعد العامة.

وقد يجادل البعض بأن اللهجات كانت موجودة دائما فى العالم العربى فما الذى استجد حتى نفكر الآن فى إيجاد مخرج من هذا الوضع ؟ وهم يرون أن حالة التعايش التى استمرت قرونا متعاقبة يمكن أن تستمر هكذا إلى أبد الآبدين. وقد سردت فى المقدمة بعض المستجدات التى تجعلنا نقلق على لغتنا الجميلة.

وبالإضافة إلى تلك الأسباب، فإنه يفوت على هؤلاء البعض أن حالة الشيزوفرينيا اللغوية فى الماضى كانت مقصورة على شريحة محدودة للغاية فى المجتمعات العربية وهى القادرة على القراءة والكتابة. ولأن نسبة الأمية كانت تزيد بالتأكيد على ٩٥ ٪ من الشعوب العربية حتى زمن قريب، لم تكن حالة الانفصام اللغوى تشكل ظاهرة تمس المجتمع ككل. أما اليوم وبفضل انتشار التعليم فقد أصبحت نسبة مستخدمى الفصحى لا تقل عن ٥٠ ٪ من أبناء الشعب العربى. وهذا تغير جذرى لا يمكن إهماله. فالقوى الحيوية

للشعوب العربية هى تلك الفئات المتعلمة القادرة على دفع عملية التطور وهى التى تعانى معاناة حادة مما أسميه شيزوفرينيا لغوية.

فى الماضى كانت الغالبية الساحقة من أبناء الشعوب العربية تعيش وتموت دون أن تعرف شيئا عن الفصحى. وكانت الفئة القليلة من علماء الدين أو اللغة يكرسون حياتهم للدرس والتحصيل، فلا تمثل حالة الشيزفرينيا مشكلة معقدة بالنسبة لهم. فتحول الشيزوفرينيا من واقع تعيشه القلة إلى مشكلة عامة فى المجتمع، هى قضية حديثة. ومع زيادة نسبة التعليم المضطردة فى العالم العربى، سوف تتحول مشكلة الشيزفرينيا إلى أزمة تضاف إلى أزمات العقل العربى فى القرن الحادى والعشرين.

ويبذل الإنسان العربى لا شعوريا جهدا ضخما للتوفيق بين اللغتين فى عقله. لكننا لا نشعر بهذا المجهود الذهنى نظرا لأننا نشأنا على هذا الوضع الشاذ ورضعنا منذ الطفولة تلك الازدواجية اللغوية فاعتبرناها أمرا مسلما به يتسق مع طبيعة الأمور. بل إن المتعلمين من العرب يخلطون فى عقلهم الفصحى والدارجة وكأنهما لغة واحدة أو وسيلتان للتعبير بينهما تقارب شديد. لكن الواقع أن الفارق بين الفصحى واللهجات يكاد يوازى الفارق بين لغات مختلفة وإن كان لها أصل واحد مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية على سبيل المثال.

* * *

ولو فكرنا قليلا بموضوعية يتضح لنا أن هذا الوضع غير طبيعى وأنه يكلف العقل العربى إرهاقا ذهنيا يحط من قدراته، كما

يشتت ملكاته الفكرية. ولأن الإنسان كما هو معروف لا يفكر بطريقة مجردة وإنما من خلال كلمات تتشكل فى عقله، فإن العربى مهدد بانفصام فى التفكير: هل يفكر بالفصحى أم بالعامية؟ وأيا كانت الإجابة فمن المؤكد أن هناك تشويشا فى عقله لا يساعده على الوضوح الذهنى.

وما يزيد الأمر تعقيدا أن العربى الطامح إلى التقدم فى العملية التعليمية وتطوير قدراته يضطر إلى إجادة لغة أجنبية سواء الانجليزية أو الفرنسية. والسبب فى ذلك لا يخفى على أحد وهو أن كل العلوم والتخصصات أصبحت تصاغ بإحدى هاتين اللغتين وبالانجليزية بصفة خاصة.

فإذا أراد أى شاب أن يكون طبيبا أو مهندسا أو كيميائيا أو خبيرا فى الكومبيوتر أو حتى صحفيا أو مؤرخا أو جغرافيا فلا بد له من الاطلاع على المصادر الأجنبية فى تخصصه ولا يمكنه ان يعتمد على العربية التى تأخرت كثيرا فى كل ميادين العلم والمعرفة. وبالتالى فإن العربى المثقف لا بد له أن يجيد ثلاث لغات على أقل تقدير: لغة يتحدث بها فى حياته اليومية، وأخرى يكتب ويقرأ ويدرس بها، ثم لغة أجنبية تفتح له أبواب العلم والمعرفة الحديثة.

صحيح أن الإنسان العصرى المثقف فى أى مكان بالعالم عليه أن يعرف أكثر من لغة لأن ذلك يفتح أمامه آفاقا واسعة ويجعله منفتحا عقليا على العالم الخارجى، إلا أن معرفة المطلوب هو معرفة لغة أجنبية عنه وليس لغتان متضاربتان فى صلب ثقافته الواحدة.

ولكى ندرك أهمية تعلم لغة أجنبية يمكننا الرجوع إلى ما كتبه فى هذا الشأن شيخ عظيم من شيوخ الإسلام هو الإمام العبقرى محمد عبده. وهذا الشيخ الجليل هو قطب من ألمع أقطاب الإستنارة فى الحقبة الفاصلة بين القرنين التاسع عشر والعشرين، على عكس بعض تجار الدين فى هذه الأيام من الذين يبذلون الجهود لجذب الأمة العربية والإسلامية إلى الوراء ولنشر أفكار تؤدى إلى الخرافات والخزعبلات.

يقول محمد عبده فى فصل بعنوان «تعلمى للفرنسية» فى كتاب «الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده» من تحقيق وتقديم الدكتور محمد عمارة ما نصه: «**إن الذى زادنى تعلقا بتعلم لغة أوروبية هو أنى وجدت أنه لا يمكن لأحد أن يدعى أنه على شىء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغى إلا إذا كان يعرف لغة أوروبية. كيف لا وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الأوروبيين فى جميع أقطار الأرض، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم ؟ أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟**».

هكذا لخص الشيخ محمد عبده منذ أكثر من مائة سنة الأسباب التى تجعل معرفة لغة أجنبية وخاصة الإنجليزية أو الفرنسية ضرورة لأى إنسان ينشد التطور الشخصى والمنفعة العامة.

وتعدد اللغات وإن كانت له إيجابياته الكثيرة إلا أنه قد يشتت الإنسان عن صلب المعرفة خاصة عندما يضطر إلى تعلم لغتين لممارسة حياته العادية كما هو الحال بالنسبة لنا نحن العرب.

وإذا قارنا هذا الوضع بالمواطن الأمريكى مثلا نجد أنه من الممكن أن يكتفى بلغة واحدة ليصل إلى ما يريد. فاللغة التى يتحدث بها ليشترى حاجته من السوق هى نفسها اللغة التى درس بها والتى يشاهد بها نشرات الأخبار بالتلفزيون وهى أيضا التى يحتاجها فى كل المراجع الهامة فى تخصصه، أيا كان هذا التخصص. وكذلك الحال إلى حد بعيد بالنسبة للفرنسى أو الألمانى.

وقد يفتى البعض بأن مشكلة الازدواج اللغوى موجودة فى الانجليزية والفرنسية وكافة اللغات الأخرى. فالناس فى الشارع وخاصة الشباب يتحدثون لغة تختلف عن لغة التدريس فى جامعات أكسفورد والسربون. لكن هذه مغالطة فاضحة هدفها تبرير حالة الشيزوفرينيا التى نعيشها كعرب، وتمييع المشكلة وكأن كل شعوب العالم تعانى منها.

أما الواقع فهو أن لغة التخاطب الدارجة فى هذه البلاد تختلف عن اللغة الراقية بقدر ما تختلف لغة شباب اليوم فى مصر عن اللغة العامية التى يتحدث بها أفراد الأسرة فى المنزل أو الموظفون فى الوزارات وأماكن العمل. وهناك مفردات يستعملها الشباب لا يفهمها الكبار وتبتعد لغتهم إلى حد ما عن اللغة العامية المستخدمة فى المدن المصرية الكبرى منذ عشرين أو ثلاثين عاما.

والأقرب للمنطق أن نقارن ما هو قابل للمقارنة، لا أن نقارن أى شىء بأى شىء لكى نثبت ما نحن راغبين فى إثباته. ولنأخذ مثالا بسيطا نهديه للذين يفتون بأن مشكلة الانفصام اللغوى موجودة فى

العالم كله مثلما هى موجودة فى العالم العربى. فإذا ذهب فرنسى مثلا إلى أحد المحال وطلب من البائع شراء حاجياته واستخدم فى ذلك اللغة التى تُكتب بها صحيفة لوموند أو حتى التى يُدرس بها فى السوربون، فإن البائع لن يرى فى ذلك أية غرابة. وسيفهم هذا البائع أيا كانت درجة ثقافته كل كلمة يقولها المشترى. كل ما فى الأمر أن البائع سيدرك أنه أمام رجل على قدر عال من التعليم والثقافة.

أما إذا ذهب مواطن فى مصر أو فى اليمن أو المغرب وتوجه إلى البائع قائلا حرفيا : «**أعطنى يا بنى رغيفا من الخبز، وزد عليه قطعة من الجبن**»، فسيكون أضحوكة كل من يسمعه وربما لا يفهم البائع ما أراد أصلا.

فهناك إذا فى هذه الحالة ثلاث لغات على الأقل يستخدمها الناس فى كل بلد عربى. اللغة العامية المستخدمة فى الحياة اليومية. ولغة مستحدثة وخاصة فى أوساط الشباب، واللغة الفصحى. وحتى هذه الأخيرة يمكن تقسيمها إلى لغة الصحافة والإعلام السهلة نسبيا ثم لغة الكتب والمتخصصين التى لا زالت تتمسك بالقديم.

* * *

ومن يريد الدخول فى تفصيلات أكثر تعقيدا فإن سكان بعض المناطق فى العالم العربى لهم أيضا لهجات خاصة وأحيانا لغات خاصة. فالصعيدى مثلا فى مصر يتحدث اللهجة السائدة فى جنوب مصر ويفهم العامية القاهرية. والحلبى فى سوريا يتحدث بلهجة تختلف عن الدمشقى وهكذا.

لكن هذه الظاهرة موجودة فى غالبية بلاد العالم. فهناك فى فرنسا لغات خاصة مثل البروفنسال والباسك لا يفهمها إلا سكان هذه المناطق. ومع ذلك فإن كل الفرنسيين يفهمون لغة أهل منطقة باريس وَيتحدثون بها فيما بينهم. وكل هذا يختلف اختلافا جذريا عن الفارق بين الفصحى واللهجات فى العالم العربى.

* * *

وتطرح الشيزوفرينيا اللغوية التى يعانى منها العرب سؤالا صعبا على النفس لكنه جدير بالطرح حتى وإن كنا مقتنعين بأن إجابته بالنفى، وهو: هل تصبح اللغة العربية الفصحى مثل اللاتينية ؟ أى لغة تفرخ لغات أخرى من باطنها لكنها لا تستخدم فى حد ذاتها وتتحول إلى لغة ميتة ؟

وفى كتاب «مستقبل الثقافة فى مصر» يحذر الدكتور طه حسين بشدة من هذا الاحتمال حيث يقول فى الفصل ٣٧ من طبعة دار المعارف الصادرة عام ١٩٩٦ : «**وأنا نذير للذين يقاومون هذا الإصلاح بخطر منكر (...) وهو أن اللغة العربية الفصحى إذا لم تنل علومها بالإصلاح، صائرة. سواء أردنا أم لم نرد. إلى أن تصبح لغة دينية ليس غير، يحسنها أو لا يحسنها رجال الدين وحدهم ويعجز عن فهمها وذوقها فضلا عن اصطناعها واستعمالها غير هؤلاء السادة من الناس**».

وفى الواقع أن هدفى من وضع هذا الكتاب هو تفادى ما ينذر به عميد الأدب العربى الذى أبصر ما لا يراه المبصرون بأعينهم، وصدق نزار قبانى فى رثائه عندما أكد هذا المعنى قائلا :

إرم نظارتيك ما أنت أعمى   إنما نحن جوقة العميان

* * *

واللاتينية كانت أهم لغات العالم فى عصر من العصور وتصور أهلها أن العالم سيظل يتحدث بها إلى أبد الآبدين. وكانوا يطلقون على روما اسم «المدينة الخالدة». لكن جحافل القبائل القادمة من شرق وشمال أوروبا والتى اجتاحت أراضى الأمبراطورية الرومانية الغربية لم تقض على نفوذ روما القديمة فحسب. فبعد بضعة قرون لم يعد للاتينية وجود وظهرت لغات هى مزيج بين هذه اللغة واللغات التى كانت تتحدث بها القبائل مثل الفرنجة والقوط والفندال وغيرهم. وتبلورت فى بطء شديد اللغات التى نعرفها اليوم مثل الفرنسية والإيطالية والإسبانية وغيرها.

ومع ذلك فإنه لا تخفى على أى إنسان الفروق الجوهرية بين العربية واللاتينية. فالعربية نزل بها القرآن وكانت لغة تراث عظيم لا يقبل أى عاقل أن يضيع هباء لأى سبب من الأسباب. لكن واقع الحياة كثيرا ما يكون أقوى من إرادة الإنسان خاصة إن لم يعمل الإنسان على تحقيق إرادته بعزيمة صلبة وعمل دءوب. ولو قال أنصار محمد ﷺ فى بداية الدعوة لبعضهم البعض: «لا تخشوا شيئا فهذا دين الله، وهو قادر على حمايته»، ثم توقفوا عن أى جهود لنشر الدعوة ووقفوا موقفا سلبيا، فالله وحده يعلم ما كان سيحدث لديننا.

اليوم أيضا، علينا ألا نكتفى بالقول بأن العربية هى لغة القرآن، وبالتالى فلا يمكن أن تمس وسيظل العرب يتحدثون بها إلى الأبد.

فهذا لا يكفى، وإنما علينا أن نعمل جاهدين على تطويرها حتى تلائم احتياجاتنا وتظل لغتنا التى نفاخر بها الآخرين.

وكما قلت فى المقدمة فإن اللهجات كانت موجودة منذ ظهور اللغة العربية فى الجزيرة. وعندما انتصرت لغة قريش بفضل نزول القرآن الكريم بها انزوت اللغات واللهجات الأخرى كلغة أدب وكتابة، لكنها ظلت متواجدة بصورة أو بأخرى فى اللغات المستخدمة فى الكلام.

وأهم ما يجب أن نعرفه أن اللغة العربية الراقية التى نزل بها القرآن وكتبت بها روائع الأدب العربى الكلاسيكى لم تستخدم كما هى كلغة للكلام فى أى عصر من العصور. فحتى فى زمن الرسول ﷺ كان عامة الناس يتحدثون لغة تمتزج فيها اللغة الراقية باللهجات المسيطرة على اللسان العربى.

وكلما ابتعدنا زمنيا عن اللحظة الفاصلة وهى نزول القرآن، كلما ابتعد الناس عن الفصحى لحساب اللهجات فى كل مكان بالعالم العربى. أى أن الناس فى العصر الإسلامى بالجزيرة العربية كانوا يتحدثون لغة أقرب إلى الفصحى منهم فى العصر الأموى. وكانوا أقرب إلى الفصحى فى الأموى من العباسى وهكذا إلى يومنا هذا الذى أصبحت فيه الفجوة واسعة بالقدر الذى يلمسه أى مراقب لا تحركه العواطف وحدها.

واللافت للانتباه أن اللهجات قد انتصرت كلغة للتعامل اليومى حتى فى مكة المكرمة وهى مهد الرسول ﷺ ومنبع اللغة العربية وبؤرة الفصاحة والبيان.

وهناك سؤال يقفز تلقائيا إلى الذهن : لماذا هجر الإنسان العربى فى كل زمان ومكان العربية الفصحى ولجأ إلى لغة أخرى للتعامل اليومى والإعراب عما فى صدره. لماذا لا يذهب العاشق إلى محبوبته ويقول لها حرفيا: «أنا هائم فى غرامك» أو «وجهك الصبوح يهز كيانى»؟ ولو قال لها مثل هذه العبارات، فالأرجح أن العلاقة بينهما ستنتهى بهذا الغزل البليغ. فلماذا يفضل دائما العاشق عبارات غزل مستقاة من اللهجة الدارجة التى تعبر أفضل تعبير عما فى نفسه ؟

من الممكن أن نجد تبريرات فلسفية ونفسانية عميقة لذلك. لكنى أرى سببا بسيطا يقفز إلى العقل على الفور: إن الفصحى ـ بشكلها الحالى ـ ليست لغة صالحة للتعامل اليومى نظرا لصعوبتها وتعقيداتها.

* * *

وكان لانتشار العربية خارج الجزيرة مع الفتح الإسلامى آثار حاسمة على لغتنا. ومع الزحف العربى فى كل اتجاه شمالا وشرقا وغربا بعد وفاة الرسول وجهت العربية ضربة قاضية إلى كل اللغات التى كانت متداولة فى المنطقة وأهمها الآرامية وهى لغة المسيح عليه السلام والقبطية وهى لغة أهل مصر قبل الفتح. وإلى اليوم فمن الصعب أن نجيب عن السؤال الآتى: لماذا سيطرت العربية على لسان الناس فى الشام والعراق ومصر وشمال أفريقيا لكنها لم تستطع اقتلاع لغات مثل الفارسية والتركية ولغات شعوب أخرى كثيرة فى آسيا ؟

وهناك نظريتان أساسيتان فى هذه القضية. تقول الأولى إن العربية ارتبطت بالتعريب أى بانتقال العناصر العرقية العربية وامتزاجها بالشعوب المفتوحة. وبطبيعة الحال فقد كانت الهجرة العربية إلى البلاد الأقرب جغرافيا. لذلك فإذا نظرنا إلى خريطة العالم الإسلامى اليوم نجد نواة أساسية هى العالم العربى، تحيط بها بقعة أكبر كثيرا هى العالم الإسلامى. لكن هذا العامل لم يكن حاسما نظرا لأن عدد العرب الذين خرجوا من الجزيرة للفتح والإقامة فى الأمصار لا يتجاوز ٢٠٠ ألف شخص وفقا لموسوعة «يونيفرساليس». وهذا الرقم تقريبى كما تقول الموسوعة لكنه ليس بعيدا جدا عن الواقع. ولاشك أن هؤلاء قد تاهوا وسط عشرات الملايين من سكان الأقطار المفتوحة.

أما النظرية الثانية فتقوم على أساس لغوى بحت. فهى تقول إن العربية انتصرت فى البلاد التى كانت تتحدث لغات سامية-حامية وهى نفس الأسرة اللغوية العربية. فاستساغت شعوب هذه البلاد مثل مصر والشام اللغة الوافدة مع الفتح لأن لها نفس جذور اللغة التى يستخدمونها.

وربما لعبت عوامل كثيرة دورا فى انتصار العربية على لغات البلاد المفتوحة. لكن المهم فى هذا البحث هو أن الفصحى لم تنجح فى فرض نفسها كلغة تعامل وانتشرت اللهجات وفقا للعادات اللغوية فى كل بقعة من بقاع العالم العربى.

وقد أطلق الجاحظ على اللهجات الجديدة تعبير: «لغة المولدين والبلديين». والمولدون هم الأبناء المخلطون أى الذين لهم أم أو أب غير عربى. وكان غالبية المولدين من أب عربى وأم «أعجمية» أى غير عربية. ويبدو أن العرب قد انبهروا بالفتيات الأجنبيات من فارس وممّن بلاد الروم حيث كانت هاته الفتيات، وخاصة الروميات منهن، تتميزن بالشعور والعيون الملونة وهو ما لم يشهده غالبية العرب من قبل. ومع طول مدة الفتح والحروب كثر الزواج من غير العربيات أو اتخاذ جاريات تلدن الأبناء. وقد لعب المولدون دورا هاما فى تاريخ الأمة العربية الإسلامية وخاصة فى العصر العباسى لكن دورهم فى تطوير أو «تشويه» العربية لم يدرس بما فيه الكفاية إلى اليوم.

ومع الوقت أصبح اللحن والخطأ فى اللغة العربية هما القاعدة بالنسبة لعامة الناس. ويروى ابن قتيبة أن أعرابيا دخل السوق فسمع الناس يخطئون فى العربية ويلحنون فقال: **سبحان الله! يلحنون ويربحون، ونحن لا نلحن ولا نربح !.**

ويؤكد أحمد أمين فى ضحى الإسلام أن اللحن كان فاشيا حتى فى العلماء. فقد لحن كما يقول مستندا إلى البيان والتبيين والعقد الفريد وطبقات الأدباء كل من الإمام أبى حنيفة وعمرو بن عبيد وبشر الميسى. وإذا كان هؤلاء العلماء الأجلاء عاجزين عن التحدث بلغة عربية سليمة مائة فى المائة فما بالنا بعامة الناس فى عصرهم. وما بالنا بعامة الناس فى عصرنا الحالى، الذى لم يعد فيه الإنسان قادرا على ملاحقة إيقاع الحياة وكم المعلومات التى

يضطر إلى استيعابها فى كل لحظة حتى يستطيع الالتفات إلى سلامة اللغة التى ينطق بها.

ومن أبرز الأمثلة التى تضرب فى فساد اللغة كتاب «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» لابن إياس. وهو بالفعل يستخدم لغة ركيكة فى نظر كتاب التاريخ الفكرى والأدبى حيث يستخدم كلمات وتراكيب عامية فيقول مثلا واصفا أحد الأمراء : «وأما عسكره فكانوا جيعانين العين، نفسهم قذرة، وعندهم عفاشة فى أنفسهم».

وباختصار وحتى فى العصور الذهبية للدولة الإسلامية كان الناس يخطئون فى العربية عندما يتحدثون بها كما يخطىء فيها العرب فى القرن الحادى والعشرين. وكانوا يؤثرون عليها اللهجات التى سيطرت على اللسان العربى تماما مع الابتعاد الزمنى عن عصر النبوة ونزول القرآن.

* * *

وكان من الطبيعى أن تؤدى حالة الشيزوفرينيا اللغوية إلى إشاعة حالة من القلق بين المثقفين المصريين والعرب وخاصة فى العصر الحديث. وكان من الطبيعى أن ينكبوا على التفكير فى وسائل الخروج من هذه الحالة الشاذة. وقد أدى ذلك إلى مجموعة من الاقتراحات والاجتهادات للعديد من عمالقة الفكر العربى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين.

ومن أخطر هذه المقترحات التى أقول بوضوح إننى لا أوافق عليها هى هجر الفصحى بالكامل واستخدام اللهجات كلغة تعامل رسمية فى الدول الناطقة بالعربية.

وقد بدأت فكرة تبنى العامية تأخذ طريقها إلى العقل العربى فى نهايات القرن التاسع عشر. ونظرا لرفض العربى فطريا لهذه الفكرة لأسباب دينية مفهومة، فقد كان أول من طرح الفكرة من المستشرقين. وظهرت كتب تروج لاستخدام العامية بديلة عن الفصحى منها «قواعد اللغة العربية العامية فى مصر» للمستشرق الألمانى فلهلم سبيتا عام ١٨٨٠ و«العربية المحلية فى مصر» للإنجليزى سلوين ولمور عام ١٩٠١ .

وفى عام ١٨٩٣ نشر الإنجليزى وليام ولكوكس بمجلة الأزهر (ولا أدرى إن كان لها علاقة بالأزهر الشريف)، مقالا بعنوان «لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين إلى الآن ؟» يدعو فيها إلى نبذ الفصحى واللجوء إلى العامية لتحرير الطاقات الإبداعية عند المصريين. وقام ولكوكس عام ١٩٢٥ بترجمة الإنجيل إلى العامية المصرية تأكيدا لرأيه فى أهمية اللجوء إلى اللهجة الدارجة ونبذ الفصحى.

وأكاد أسمع من يقول: إن رأى هؤلاء المستشرقين دليل على بطلان الدعوة إلى تبنى الفصحى. فهؤلاء أعداء الإسلام والعرب ولا يدخرون وسعا لتقويض أركان ديننا وثقافتنا، فكيف نستمع إلى من يضمرون لنا الحقد والكراهية ....

ولو افترضنا صحة هذا الكلام، فإنه لا ينبغى مع ذلك أن نأخذ آراء الأجانب والمستشرقين باستخفاف لمجرد الشك فى مقاصدهم. فهؤلاء المستشرقون لا يتحدثون من فراغ وإنما من منطلق إعراض

كل الشعوب العربية بلا استثناء واحد عن استخدام الفصحى كلغة للتعامل فيما بينها. وعلينا أن نرد على حججهم بقوة المنطق والعقل وليس بالعواطف وتوجيه الاتهامات.

فهناك بعض من فطاحل الفكر العربى تبنوا هم الآخرون أفكارا مشابهة. وكان أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد من أوائل المصريين الذين روجوا لفكرة استخدام العامية وإن كان قد أعاد النظر فى موقفه وتخلى عن هذه الدعوة فيما بعد. كما كان مشروع عبد العزيز فهمى الذى دعا من بين ما دعا إلى استخدام الحروف اللاتينية للغة العربية قد أثار موجة اعتراض عارمة من قبل كافة الفئات.

وفى لبنان تحمس لهذه الفكرة سعيد عقل وأنيس فريحة. وكان قاسم أمين وطه حسين وأحمد أمين وامين الخولى من بين أشد الداعين إلى تيسير اللغة العربية وتبسيط قواعدها. وكل هؤلاء لا يشك فى حسن نواياهم تجاه لغتنا وتراثنا.

ومن أشهر من دعوا إلى تبنى العامية بديلا عن الفصحى بحجج عنيفة صدمت الكثيرين كان سلامة موسى. وقد ساند أيضا استخدام الحروف اللاتينية واعتبر ذلك «وثبة نحو المستقبل».

ويقول سلامة موسى عن الفصحى: **«ورثناها من بدو الجاهلية فى عصر الناقة، ويراد لنا أن نتعامل بها فى عصر الطائرة».**

وفى رأيى أن سلامة موسى قد انطلق من فرضية صحيحة وهى أن اللغة العربية كما ورثناها لم تعد تلائم العصر. لكن النتيجة التى

استخلصها من هذه الفرضية الصحيحة جاءت خاطئة. فهو يستنتج من عدم مواءمة اللغة لمتطلبات العصر أن نستبدلها بأخرى هى العامية. لكن النتيجة الأكثر منطقية هى أنه أصبح من الضرورى تطوير اللغة بحيث تناسب أسلوب تفكير واحتياجات إنسان القرن الحادى والعشرين.

والوسيلة الوحيدة لذلك هو الإسراع بالاتفاق على سبل تطوير اللغة بإرادة عربية مشتركة. ولن يتأتى ذلك إلا بوعى المثقفين والقائمين على أمور الثقافة فى العالم العربى بأن الفصحى أصبحت مهددة فعلا، وأنه بعد عدة أجيال قد لا نجد من يعرف لغة سيبويه إلا قلة من الدارسين والمتخصصين. فالعامية تعبر عن احتياجات الإنسان العربى للتفاهم أفضل من الفصحى، ولهذا هجر اللغة الصعبة إلى الأسلوب الأسهل فى التعامل.

والاتجاه الغالب لتناول قضية الشيزوفرينيا اللغوية العربية هى قبولها كما هى وكأنها قدر مكتوب علينا ولا فكاك منه فى المستقبل. لكن العقل يحتم علينا مراجعة هذا الموقف البراجماتى المستسلم للواقع.

من المؤكد أنه ستكون هناك دائما فجوة بين لغة الكلام اليومية ولغة الكتابة. وهى حقيقة موجودة فى كل بلاد العالم. لكن واجبنا تجاه الأجيال القادمة هو تضييق هذه الفجوة بأكبر قدر ممكن. ومن الواضح أن هذا هو الاتجاه الذى فرضته طبيعة الأمور وخاصة منذ ظهور الصحافة فى العالم العربى.

وكما قلت فإن ما يعرقل الاعتراف بهذا التطور الطبيعى هو الربط المصطنع بين اللغة والدين وتخويف البعض بأن المساس باللغة هو مساس بالدين ذاته. وهو كلام بعيد جدا عن الحقيقة كما حاولت أن أثبت فى هذا الكتاب.

* * *

وقد لعبت الصحافة دورا محوريا فى إيجاد لغة مبسطة تفهمها شرائح متعددة من أبناء الشعب العربى. ويجمع الكثير من المثقفين ومحبى العربية أن الصحافة فتحت الباب أمام الحل الأمثل لمشكلة الشيزوفرينيا التى تواجه كل عربى قادر على القراءة والكتابة.

وإن كانت جهود الصحافة فى تبسيط اللغة لم تسلم من انتقاد بعض فطاحل الفكر العربى. وقد عبر حافظ ابراهيم عن هذا الرأى عندما قال:

أرى كل يوم بالجرائد مزلقا من القبر يدنينى بغير أناة

وعلى الرغم من وجهة نظر شاعر النيل، إلا أن التقريب بين الفصحى واللهجات هى السبيل الوحيد لإيجاد تطوير منطقى ومقبول من الجميع للغة الضاد.

وأيا كان موقفنا من هذا الوضع اللغوى فإن حالة الشيزوفرينيا التى نعيشها معرقلة للتقدم ومعطلة لطاقات العقل العربى. والعرب فى هذا المجال هم حالة لغوية فريدة ووحيدة فى عالم اليوم. فإذا كان لا بد أن نتفرد بشىء، فالأفضل أن نتفرد بما هو نافع ومتميز، وليس بما هو ضار ومعرقل.

* * *

غاية اللغة

الأصل فى اللغة أنها وسيلة للتعبير عن النفس والتفاهم مع الآخرين. وهناك نظريات متناقضة حول نشأة اللغة فى الأطوار الأولى من الإنسانية يختلف حولها العلماء. لكن ما لا خلاف عليه هو أن الإنسان فى مراحل تطوره الأولى استخدم أصواتا يرمز بها إلى معان حتى يفهمه الآخرون، وأن الحاجة إلى التفاهم هى التى أوجدت الكلام. وظلت الغاية من اللغة فى مختلف الحضارات هى التواصل والاتصال بين أبناء البشرية.

لكنه من الواضح أن المجتمعات العربية تشذ عن هذه القاعدة. فاللغة عندنا هى غاية تُنشد فى حد ذاتها. هى تستخدم بالطبع للتفاهم والتعامل، لكن لها عندنا هدف آخر نتميز به عن غيرنا: فالعربى يطرب وينتشى من الكلمات سواء فى الشعر أو فى النثر لدرجة جعلت استخدام التعبيرات والتراكيب الجديدة عليه غاية تفوق فى أهميتها الغاية الأساسية من اللغة.

وفى قصور الخلفاء والأمراء كان الشعراء والعلماء يتسابقون لاستخراج كلمات ومعان مبتدعة ويتفننون فى اللعب بالألفاظ من أجل إرضاء القادرين على منح العطايا. وكان الخلفاء وأولى الأمر يصلون إلى درجة من الانتشاء باللغة تجعلهم يغدقون على الشعراء بأموال تفوق ما يصرف فى أهداف أخرى مفيدة للمجتمع. وكان الزخرف والتزيين الكلامى وإيقاع الألفاظ ورنينها وطنينها هى حيثيات البلاغة التى يتيه بها العربى.

فالعربى عاشق للغة ومتيم بها لذاتها وليس لمجرد نقل المعلومات والتفاهم مع الآخرين. ونستخلص من هذا أن مفهوم اللغة لدى العرب يختلف عنه فى الحضارات الأخرى. فهى وسيلة بالنسبة للآخرين وهى غاية بالنسبة لنا ثم وسيلة بالدرجة الثانية.

ومنذ بداية القرن العشرين بدأ العلماء يدركون أن اللغة تؤثر فى عقل المجتمعات وفى سلوكيات الأفراد. وتعتبر نظرية «سابير - وورف» أول دراسة تربط بصورة مباشرة بين اللغة وتشكيل عقل الإنسان. وظهرت بعد ذلك دراسات كثيرة لم تصل بعد إلى مستوى مطمئن تماما، لكنها تدل كلها على أن هناك صفات عامة للمجتمعات تتصل بقالب اللغة وتركيبها وروحها. واللغة تعبر بصدق عن المجتمع لكنها تؤثر فيه بالتوارث من جيل إلى جيل. فالعلاقة بين العقل واللغة هى علاقة تبادلية. فاللغة تعبر عن روح المجتمع بنفس القدر الذى تؤثر فيه.

وإذا أخذنا الإنجليزية مثلا يتضح لنا كم أنها تعكس الروح العملية التى تميز الإمريكيين والإنجليز وسهولة الحياة وغياب

التعقيد فى ثقافتهم. والألمانية مرآة للدقة والانضباط وهما أبرز سمات الشعب الألمانى عبر تاريخه. أما الفرنسية فهى تتصف بالوضوح والسلاسة. وقد أفرزت هذه الثقافة وهذه اللغة الفكر الديكارتى العقلانى القائم على منطق محكم وواضح المعالم.

ومنذ نحو ألف ومائتى عام، تنبه رجل ذو بصيرة نافذة، هو الجاحظ لهذه الفروق بإحدى رسائله فى «البيان والتبيين» فيقول: «**إن الحكمة وقعت على ثلاث: عقل الإفرنج، وأيدى أهل الصين، ولسان العرب**».

وفى كتاب «تاريخ العرب» يعزز فيليب حتّى هذه الفكرة حيث يقول: **والعرب لم يبدعوا أو ينشئوا فنًا عظيمًا خاصًا بهم من الفنون المعروفة، ولكنهم عبروا عن الغريزة الفنية بصورة واحدة هى: الكلام. فإن فاخر الإغريقى بما عنده من تماثيل الفن ومنشآت هندسة البناء، فالعربى يرى قصيدته أفضل ما يعبر عن خلجاته الداخلية.**

ويبدو أننا قنعنا بهذه القسمة الجائرة التى تجعلنا بارعين فى الكلام وليس فى أمور العقل والقدرة على العمل.

* * *

وإذا كانت اللغة تلعب دورا حاسما فى وجدان كل شعوب العالم، فإن أثر اللغة على المجتمع العربى أكبر كثيرا من أى تكتل ثقافى آخر. فاللغة بالنسبة للعربى هى التى نزل بها القرآن وهى لغة الأحاديث الشريفة وهى لغة التراث الأدبى العظيم الذى تركته لنا أجيال

متعاقبة من المبدعين فى كل مجال من امرىء القيس إلى نجيب محفوظ. وفوق كل هذا فهى كما قلنا بمثابة غاية تنشد لحد ذاتها.

* * *

وسنسعى فى هذا الفصل لاستعراض أبرز الآثار الناتجة عن اللغة والمؤثرة فى العقل العربى. ومن السذاجة أن نتصور أن اللغة تشكل العقل بطريقة آلية وأن كل سمات العقل العربى التى سنطرحها فى هذا الفصل هى نتيجة للغة وحدها. فهناك بالتأكيد عوامل أخرى ثقافية واقتصادية وتاريخية وبيئية وغير ذلك أثرت فى تكوين العقل العربى. لكن لغة الضاد تلعب دورا هائلا فى تشكيل هذا العقل، وهى كالجينات التى تؤهل الإنسان لصفات معينة ثم تتفاعل مع ظروف الطبيعة والحياة لتخلق شخصية الفرد، فاللغة تحدد ملامح اتجاهات الشخصية العامة لكنها تنعكس بعد هذا بطريقة متفردة على كل شخص.

وكما أن «الفكر القبلى» و«ثقافة الأذن» و«حضارة اليقين» كانت كلها فى البداية عناصر أيجابية فى عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية ، ثم انقلبت إلى عوامل سلبية مع مرور الزمن ، كما أثبت فى كتاب «الداء العربى»، فإن اللغة ينطبق عليها هى الأخرى نفس التحليل.

فقد لعبت العربية دورا حاسما فى انطلاق العقل العربى من خلال النص المؤسس لحضارة العرب وهو القرآن الكريم. وجاءت بعد ذلك الإبداعات الشعرية والنثرية فى العصر الإسلامى ثم الأموى فالعباسى.

وكانت لغتنا الجميلة تسهم فى رقى المشاعر وسمو النفوس وتساعد على الاستمتاع بكل ملذات الحياة الروحية والحسية. ولا شك أن اللغة كانت ركنا من أهم أركان الحياة فى قصور الخلفاء والأمراء وعنصرا من عناصر الارتقاء والشموخ النفسى. وكتاب **الأغانى** يدل على مكانة اللغة فى الحياة العربية فى عصور الازدهار. ومع تطور الزمن ورفض العرب أى تطوير للغتهم يتواءم مع التقدم الطبيعى للمجتمعات، أخذت اللغة تتحول تدريجيا إلى عامل من عوامل الجمود المعوقة للتقدم.

***

ومن أبرز الانعكاسات السلبية للغة جنوح العقل العربى إلى الاهتمام بالشكل على حساب الجوهر. وقد تنبه المتنبى لهذا العيب الخطير منذ أكثر من ألف عام بفضل بصيرته النافذة وكأنه يستشرف آفاق المستقبل ولا يكتفى برصد حاضره. وقد شاع قوله فى الشطر الثانى لأحد أبيات قصيدة يهجو فيها كافور : «**يا أمة ضحكت من جهلها الأمم**».

لكن الشطر الأول من هذا البيت أبلغ كثيرا فى رأيى وأكثر دلالة على انحياز العقل العربى إلى المظهر على حساب الجوهر، ويقول فيه المتنبى : «**أغاية الدين أن تحفوا شواربكم ؟**».

فقد لاحظ أبو الطيب أن الناس فى عصره يلتزمون بإحفاء شواربهم وإطلاق لحاهم، وهى سنة معروفة، ثم بعد ذلك يفعلون ما يشاءون مما يتناقض مع جوهر الدين وينافى تعاليمه الأساسية.

ومن هذه الملاحظة طرح سؤاله العبقرى : هل الغاية من الدين الذى نزل للإنسان فى الأرض هو المظهر الذى يبدو عليه الإنسان أم هو الجوهر الكامن فى قلبه ويترجم بمواقفه من الآخرين ؟

وكأن المتنبى يعيش بيننا الآن ويرى البعض يختزل ديننا العظيم فى بعض المظاهر غير الجوهرية وكأنها لب الدين وأساسه الركين. نرى البعض يختزل الدين الإسلامى فى الحجاب بالنسبة للمرأة واللحية بالنسبة للرجل. أما أن يلتزم الناس بالأمانة فى المعاملة والبعد عن الفحشاء وعن الرشوة والسرقة؛ أما عن مساعدة المحتاج وأداء العمل بضمير متيقظ والسعى لخدمة الناس وإسعادهم، فكل هذه أمور ثانوية فى نظرهم ولا ترقى إلى مستوى المظاهر.

وهناك مقولة أن العربى يهتم بالكلمات أكثر من المعانى وبالمعانى أكثر من الأفعال. والأمثال الشعبية تعكس هذا النزوع إلى تفضيل الشكل مثل «لاقينى ولا تغدينى» و «لبس البوصة تبقى عروسة» و«الصيت ولا الغنى». وهذه الأمثال، وإن كان فيها الكثير من الحكمة إلا أنها ترمز بوضوح إلى العقلية العربية التى تولى الشكل أهمية قصوى.

* * *

الخاصية الأخرى الواضحة فى العقل العربى والتى تنعكس فى اللغة ثم تعود فتؤثر على الإنسان العربى هى النزعة إلى المبالغة. ونلاحظ أن البلاغة والمبالغة مشتقان من نفس المصدر، مما يعطى انطباعا بأن المبالغة هى جزء لا يتجزأ من البلاغة، التى تعد من أنفس المزايا وأقيمها عند العرب. وبحكم تركيبها فإن اللغة العربية

تسوق المتحدث أو الكاتب وتدفعة دفعا إلى أن يضخم المعنى ويسعى إلى تفخيمه والنفخ فيه حتى يؤثر على سامعه.

وإطلاق اسم لغة الضاد على العربية لم يأت من قبيل الصدفة، لكنه يعكس هذه النزعة، حيث أن العربية هى اللغة الوحيدة فى العالم التى تحوى حرف الضاد. وهذا الحرف هو تفخيم وتضخيم لحرف الدال الذى تكتفى به كل لغات العالم الأخرى.

ولا تكاد قصيدة أو عمل إبداعى عربى منذ العصر الجاهلى يخلو من المبالغة والتهويل. ولعل من أشهر الأبيات التى وصلت بملكة المبالغة إلى حد الكاريكاتير هو بيت عمرو بن كلثوم فى معلقته الشهيرة التى مطلعها:

ألا هبى بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا

ويقول البيت :

إذا بلغ الفطام لنا رضيع تخر له الجبابر ساجدينا

ويروى فى بعض المصادر: «إذا بلغ الفطام لنا صبى».

وهناك أبيات فى هذه القصيدة المعلقة تثير الضحك فعلا. فهو يقول مثلا:

ملأنا البر حتى ضاق عنا ونحن البحر نملؤه سفينا

أما نحن، فنعرف أن العرب لم يملأوا واحدا فى المائة من أرض الجزيرة العربية، كما لم يعرف لهم أية أساطيل.. صغيرة أو كبيرة. فما بالنا أن تضيق بهم الارض، وأن يكون لهم أسطول يملأ البحر سفنا.

وظلت المبالغة صفة متوارثة من جيل إلى جيل وكأنها سمة لاصقة بالعقل العربى ومرتبطة بالأسلوب واللغة وبالفصاحة ذاتها. واشتهرت العنتريات التى ارتفعت بالتهجيص والتهويش إلى أعلى ما يمكن أن يصل إليه أسلوب لغوى.

ولنتأمل النص التالى الذى يورده ابن قتيبة فى «عيون الأخبار» فى «باب الحرب» : **«كان لأبى حية النميرى سيف ليس بينه وبين الخشبة فرق. وكان يسمى (لعاب المنية) قال جار له: أشرفت عليه ليلة وقد انتضاه وشمر وهو يقول: أيها المغتر بنا والمجترىء علينا، لبئس والله ما اخترت لنفسك، خير قليل وسيف صقيل، لعاب المنية الذى سمعت به، مشهور ضربته لا تخاف نبوته.. أخرج بالعفو عنك وإلا دخلت بالعقوبة عليك.. إنى والله إن أدع قيسا تملأ الأرض خيلا ورجلا.. ياسبحان الله.. ما أكثرها وأطيبها.. ثم فتح الباب، فإذا كلب قد خرج. فقال: الحمد لله الذى مسخك كلبا. وكفانى حربا».**

وهذا النص الذى تتضح منه السخرية مثال كاريكاتيرى للكلمة التى تفقد معناها بسبب العنترية والتهويل وينطبق عليه المثل القائل: «الجنازة حارة.. والميت كلب».

* * *

واستمرت هذه النزعة إلى المبالغة ونقلت عدواها إلى رجال السياسة الذين اعتادوا على إطلاق التصريحات النارية التى يعلمون سلفا أنهم غير قادرين على تنفيذها.

ولعل أشهر مثال على ذلك هو تصريح أحد القادة الفلسطينيين قبل نكسة ١٩٦٧ قال فيه بأننا سنلقى إسرائيل فى البحر. وقد أضر هذا التصريح بالقضية الفلسطينية ضررا بالغا. ولم يدرك العالم آنذاك أنه مجرد نتاج لثقافة المبالغة ولغة التهويل، ولم يكن ينم عن نوايا حقيقية بقتل كل الإسرائيليين وإلقائهم فى البحر. وقد أخذ العالم أجمع وخاصة العالم الغربى هذا التصريح بمعناه الحرفى نظرا لأن غالبية ثقافات العالم لا تميل مثلنا إلى الإفراط فى المبالغة.

وكان صدام حسين وريثا وفيا لأسلوب التهويش الذى يتأثر بتركيبة اللغة العربية، وبلغ فيه ما لم يبلغه زعيم عربى من قبل ولا من بعد. وقد قال فى تصريح عنترى فى عام ١٩٩٠ أنه فى حالة الاعتداء على العراق فإنه «سيحرق نصف إسرائيل». وقد رأينا الهوة السحيقة بين تصريحات صدام البطولية وأفعاله الفاشوشية.

ولا تخلو الصحف العربية من أساليب المبالغة الفجة والتى تعتبر فى نظر كتابها والعديد من قرائها بلاغة تصل بالمعنى إلى أعلى مراتبه. فتجد مقالا ينتقد شخصا لأمر غير خطير، فيتحمس كاتبه ويقول إن فلانا يستحق أن يشنق فى ميدان عام. ومع سياق الكلام «يسخن» الكاتب أكثر فيضيف أنه لا بد وأن يسحل هذا الشخص فى شوارع المدينة وأن تحرق جثته ليكون عبرة لغيره.

ويبدو أن العربى يرضع مع تعلم اللغة نزعة فطرية إلى المبالغة والتوكيد. وقد أجريت دراسة على عينة من الشباب العربى والغربى فاتضح أن التصريح الذى يعتبره الغربى موقفا واضحا وتوكيدا

للمعنى، يعتبر بالنسبة للشباب العربى موقفا حياديا يحتمل التأويل، ولا يتضمن توكيدا واضحا.

ولأننى أنتمى قلبا وقالبا إلى الثقافة العربية فقد مررت بتجربة مماثلة فى بداية إقامتى بفرنسا عام ١٩٨٠ . وقد صدر آنذاك تصريح البندقية الشهير الذى اعتبر موقفا أوروبيا جديدا ونقلة من التأييد الكامل لإسرائيل إلى موقف يتفهم الحق العربى ويقف إلى جانبه. وصدرت فى فرنسا تصريحات كثيرة فى نفس هذا الاتجاه بل تذهب إلى أبعد مدى فى اتجاه العرب. وكان الدبلوماسيون الفرنسيون الذين ألتقى بهم وكانوا مؤيدين للعرب يبدون سعادتهم أمامى. لكنى كنت أختلف معهم لأننى أجد هذه التصريحات مائعة وغير قاطعة. وكانت تدور مناقشات حامية بيننا.

ولم أكن أفهم آنذاك أن هناك فجوة فى المفهوم اللغوى بينى وبينهم وأن المواقف فى المفهوم الغربى يتم التعبير عنها بأسلوب بعيد عن المبالغة والتوكيد، وهو الأسلوب الذى اعتدنا عليه.

* * *

ومن العيوب العربية المرتبطة بالمبالغة استغلال الكلمة بإيقاعاتها وإيحاءاتها الفضفاضة بديلا عن الفعل الغائب. وقد ذكر القرآن الكريم هذا العيب المستقر فى العقل العربى منذ قديم الأزل حيث يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ﴾ (سورة الصف ٢).

وقد رصد الشاعر الفلسطينى الكبير محمود درويش هذه الخصال فقال فى قصيدة بعنوان: «سرحان يشرب القهوة فى الكافيتيريا»:

أفقت.. تعملت تصريف فعل جديد، هل الفعل معنى بآنية الصوت؟ أم حركة؟

وتكتب: ض.. ظ.. ق.. ص.. ع.. وتهرب منها..،

ضجيج الفراغ حروف تميزنا عن سوانا..،

طلعنا عليهم طلوع المنون.. فصاروا هباء وصاروا سدى..

سدى نحن.. هم يحرثون طفولتنا..، ويحكون أسلحة من أساطير..،

أعلامهم لا تغنى.. وأعلامنا تجهض الرعد..،

نقصفهم بالحروف السمينة.. ض.. ظ.. ص.. ق.. ع.. ثم نقول انتصرنا..

وتبقى غريبا.. جراحك مطبعة للبلاغات.. والتوصيات.. باسمك تنتصر الأبجدية..

* * *

وفى كتاب «العقل العربى» الصادر عام ١٩٧٣، يورد المفكر روفائيل بطّى دراسة ميدانية عن الأطفال العرب يتضح منها أن ٨٨٪ من الأمهات يعترفن بقيامهن بتهديد أطفالهن بالكلمات، ثم لا يتبعن ذلك بالتنفيذ. ونظرا لما تحتويه العربية من كلمات رنانة

وعبارات فضفاضة فإن التهديد الكلامى يكون عادة عنيفا للغاية ومفزعا بالنسبة للأطفال.

و تلجأ الأمهات إلى الأسلوب العربى اللغوى فى التهويل والمبالغة بأن يهددن أطفالهن بالضرب وربما بالقتل والحرق وقطع الأيدى وغير ذلك، ثم لا ينفذن هذا الوعيد بسبب الرحمة أو الشفقة وحبهن لأطفالهن. ولا شك أن التهديد والوعيد والتخويف هى عمليات تنفيس تقوم بها الأم العربية لكى لا تؤذى طفلها الحبيب، لكن المشكلة أن هذا الأسلوب يترك فى نفوس الأطفال آثارا لا تمحى، وتترسخ فى عقلهم الباطن عادة الكلام الذى يعبر عما فى داخل النفس من رغبات كامنة، لكنه لا يعبر عما ينوى الإنسان أن يقوم به من أفعال (الكلمة بديلا عن الفعل). فالكلام فى واد والواقع فى واد آخر.

وهناك مئات من الأمثلة تؤكد ميل العربى إلى استعواض الأفعال بالكلمات. والشعر العربى منهل لا ينضب لهذه الأمثلة من امرىء القيس إلى يومنا الحالى. فالشعراء الذين يتحدثون عن الفضيلة وأفعالهم تتناقض مع أبسط قواعدها، والشعراء الذين يتحدثون عن القناعة وهم يتكالبون على الحياة، كلهم قد ملأوا سماء الأدب فى القرون الماضية. ربما كانت أشعارهم الجميلة تشفع لهم الفجوة بين كلماتهم وأفعالهم. لكن وقع أشعارهم على النفسية العربية كان سلبيا للغاية.

وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول من الأمثلة البارزة على ما نريد أن نثبته. فقد كان حسان أفضل من يتحدث عن الحرب

والقتال والبأس، لكنه لم يرفع سيفه يوما واحدا فى ساحة معركة. وفى تلك الأيام لم يكن هناك محاربون ومدنيون فى الجزيرة العربية. فكل من يستطيع حمل السلاح كان يشارك فى الذود عن قبيلته أو مهاجمة قبيلة أخرى. لكن الرسول كان يعفى حسانا من القتال لعلمه بأنه ليس قادرا عليه.

وتروى صفية بنت عبد المطلب وهى بنت عم الرسول وقت غزوة الخندق فى كتاب «الأغانى»: **«وكان حسان معنا مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من اليهود (..) وليس بيننا وبينه أحد يدافع عنا (..) قالت: فقلت: ياحسان (..) إنزل إليه فاقتله. فقال: يغفر الله لك يابنت عبد المطلب، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا»**.

فما كان من صفية إلا أن هوت على رأس اليهودى بعصا فقتلته. وكان يهود بنى قريظة يساندون أعداء النبى خلال غزوة الخندق ويناصبون المسلمين العداء فى ذلك الوقت كما هو معروف.

فى كتاب «البخلاء» أورد الجاحظ قصة طريفة تبرز بوضوح نزعة الكلام الذى لا يعبر عن الحقيقة. فيحكى الجاحظ عن محمد بن يسير وهو شاعر بصرى أن أحد الولاة بفارس استمع فى أحد الأيام إلى شاعر أخذ يمدحه مدحا مفرطا فقال الوالى لكاتبه : أعطه عشرة آلاف درهم ففرح الشاعر فقال الوالى للكاتب : اجعلها عشرين ألف. فتضاعفت فرحة الشاعر. فقال الوالى : اجعلها أربعين ألفا. وهنا طار الشاعر فرحا وقال للوالى ما معناه أنه سينصرف حتى لا يحرجه ويزيد هذا المبلغ.

ولما انصرف الشاعر أمر الوالى كاتبه بألا يعطيه شيئا. فلما أبدى السكرتير استغرابه، قال الوالى مفسرا موقفه إن الشاعر زعم أنه أحسن من القمر وأشد من الأسد وهكذا . وهو يعلم أن كل هذا غير صحيح، لكنه فرح بهذا الكلام الذى لا علاقة له بالواقع. وعندما وعد الشاعر بأربعين ألف درهم، فرح الرجل فرحة كبيرة. فكما أفرحه الشاعر بالكلام فهو أيضا قد أفرحه بالكلام.

وتذكر هذه القصة بالمثل الذى يقول: «كلام ابن عم حديث».

* * *

وتتضح الفجوة الثقافية الناجمة عن اللغة فى مفاوضات العمل والتجارة بين الأطراف العربية والأطراف الأخرى سواء من الشرق أو الغرب. والمسألة لا علاقة لها بالترجمة. فربما تحدث الجميع نفس اللغة، وربما قام المترجمون بواجبهم بأمانة. لكن دلالة الكلمات تختلف بين الطرفين. فالعربى يكره أن يقول : لا. وهو يستعيض عنها بكلمة: ربما عندما لا يريد تنفيذ شيئا. وعندما يقول نعم فهو يقصد عادة : ربما ، أو أن الأمر ممكن تنفيذه.

وقد قامت الثقافة العربية فى بدايتها على الأذن نظرا لأنها ازدهرت فى مجتمع تسيطر عليه الأمية (إنظر كتاب الداء العربى باب «ثقافة الأذن»).

وكان من أهم آثار ذلك أن العقل العربى يقبل الحقائق عن طريق الأذن. فاليقين بالنسبة له هو ما يسمعه، فى حين أن اليقين فى معظم الحضارات الأخرى، هو ما يراه الإنسان رأى العين.

ومنذ اختراع التصوير الفوتغرافى والسينما والتلفزيون تقهقر دور الأذن وزاد دور العين فى المعرفة. لكن سحر اللغة العربية والمكانة التى تحظى بها فى ثقافتنا تجعل المجتمعات العربية لا تزال تتمسك باليقين عن طريق الأذن والكلمات، بينما الآخرون يصلون إلى اليقين عن طريق العين والعقل.

وربما يفسر ذلك أن الشائعات تنتشر فى مصر والعالم العربى بسرعة أكبر كثيرا من أى مكان آخر فى العالم. فالإنسان العربى، منذ أن أفل نجم حضارتنا، ميال بفطرته إلى أن يصدق ما يسمعه دون أن يخضعه للتفكير والنقد. ويكاد الحس النقدى يكون منعدما فى الثقافات العربية منذ قرون طويلة، فالعربى يثق فى اللغة وبالتالى يثق فيما ينقل إليه عن طريق هذه اللغة.

* * *

ومن أبرز خصائص اللغة العربية خاصية الإبداع فى التعبير عن الفكرة بأسلوب غير مباشر. فالأسلوب المباشر غير محبب فى العربية ويعتبر ضعفا وركاكة فى التعبير. وبرغم ما يقال بأن البلاغة فى الإيجاز فإن الواقع عكس ذلك على خط مستقيم. فبراعة الشاعر والكاتب تقاس بمقدرته على اللف والدوران حول المعنى والوصول إليه من طرق ملتوية ومعقدة ربما تزيده جمالا فى عيون المستمعين.

ومن المؤكد أن هذه الخاصية قد انعكست على العقل العربى وخاصة فى القرون الأخيرة حيث يؤثر العربى عدم مواجهة الواقع والالتفاف حول الحقائق بقدر المستطاع خاصة تلك التى تصدم قناعاته.

ويظهر الميل الفطرى لعدم المباشرة فى أسلوب التعامل اليومى سواء فى العمل أو فى الحياة الخاصة. فعادة ما يبدأ العربى بديباجة طويلة ومقدمات لا آخر لها قبل أن يدخل فى الموضوع الذى يريد الخوض فيه. ومع تزايد سرعة الإيقاع فى مصر ظهر تعبير جديد كرد فعل هذه الظاهرة وهو : «هات من الآخر». أى قل ما تريد بغير مقدمات.

* * *

ومن أخطر الخصائص النفسية التى تلعب فيها اللغة دورا لا يستهان به هى علاقة العربى بالزمن. فقبل ظهور الإسلام لم يكن هناك اى تقويم زمنى بالأعوام وكان هم عرب الجزيرة الوحيد فى مجال الزمن هو معرفة الشهور لأسباب تتعلق بحياتهم العملية.

أما الحضارات الأخرى التى ظهرت قبل الإسلام فقد عرفت التقويم بالشهور والسنين. وقد أصدر يوليوس قيصر مرسوما بالعمل بما عرف بالتقويم الرومانى فى عام ٤٥ قبل الميلاد اى نحو ٧٠٠ عام قبل أن يشعر العرب بضرورة التقويم بالسنين. وقبل يوليوس قيصر كانت الحضارة اليونانية تعرف التقويم بالسنين. وبفضل تقويمهم نعرف الآن أن سقراط ولد عام ٤٧٠ قبل الميلاد ومات عام ٣٩٩ قبل الميلاد وكذلك أفلاطون (٤٢٨ ق.م - ٣٤٨ ق.م) وأرسطو (٣٨٤ ق.م - ٣٢٠ ق.م).

أما قصى الجد الأكبر للرسول ﷺ وأول من نزل بقريش فى مكة فلا يعرف أحد متى ولد ومتى مات ولا حتى بالتقريب، على الرغم

من أهميته الكبرى فى تاريخ العرب. ونفس الأمر بالنسبة لهاشم الذى ينتمى إليه الرسول مباشرة حيث يسمى آله : بنو هاشم. ربما نعرف بالتقريب أنه عاش فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى. والغريب أنك لا تجد من يهتم كثيرا بمعرفة متى عاش هؤلاء ومتى كانت القصص المتواترة عنهم. فكتب التراث تتحدث عنهم وكأنهم أناس من خارج الزمن. فالماضى بالنسبة للعربى هو كيان هلامى يتوه فيه ومن الصعب التفرقة بين مراحله.

وعندما ظهر نور الإسلام، كان هناك تقويمان أساسيان للأعوام. الأول هو التقويم البيزنطى، والثانى هو التقويم الساسانى فى بلاد فارس.

ولم يبدأ التقويم الزمنى عند العرب إلا فى عام ١٦ بعد الهجرة فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب. وقد حسمَ الفاروق جدلا حول الحدث الذى يبدأ منه التقويم فجعله الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة.

قبل ذلك كان هناك بالنسبة للعربى زمن حاضر وزمن ماض. والماضى ليس له أى تحديد. وكان التحديد التقريبى الوحيد هو بعض الأحداث الهامة التى وقعت فى الجزيرة وعلى رأسها عام الفيل وهو الذى حاول فيه أبرهه غزو مكة وتحطيم الكعبة المشرفة. وكانوا يقولون مثلا قبل عام الفيل أو بعده بقليل.. وهكذا.

ومن يبحث فى تصريف الأفعال بالعربية يكتشف السر فى علاقة العربى بالزمن. فالأفعال العربية مبنية على الماضى

والمضارع بالنسبة للترتيب الزمنى. لكن هناك خلطا لا حد له بين الاثنين. فالمضارع قد يستخدم للماضى والعكس صحيح. فنقول مثلا: أكلت الآن كذا.. وأكلت فعل ماضى. ويقول والد العروس: «زوجتك ابنتى» مع أن «زوجتك» فعل ماضى لكنه يعنى هنا الحاضر والمستقبل. كما يقال: غداً نصلى الجمعة. و«نصلى» فعل مضارع لكن المقصود به هنا المستقبل.

كما أنه لا يمكن ترتيب الأزمنة بوضوح من خلال الأفعال فى الماضى وتحديد وقوع فعل قبل أو بعد فعل آخر.

وبالنسبة لعظمائنا الذين نعرف العصور التى عاشوا فيها بدقة، فإن الغالبية العظمى للعرب تعرفهم إسما لكنها لا تهتم بمعرفة الأزمنة التى عاشوا فيها. فكم مصرى يعرف متى عاش صلاح الدين الأيوبى أو الظاهر بيبرس أو طومان باى أو المقريزى ؟ من يعرف بالتحديد تاريخ ميلاد أو وفاة سعد زغلول أو مصطفى كامل أو طه حسين ؟

الغالبية الساحقة لا تعرف. بل لا تهتم أن تعرف. فقياس الزمن بالنسبة لعامة العرب رفاهية لا لزوم لها.

أما فى فرنسا فإن الغالبية تعرف بدقة تاريخ ميلاد ووفاة نابليون وهوجو وغيرهما. ويعرف الألمان متى ولد ومات بسمارك وجوته.

***

ومن المهم فى النهاية أن نعى المناخ النفسى والاجتماعى والعقائد التى كان يؤمن بها عرب الجاهلية فى العصر التى نشأت وتبلورت فيه اللغة العربية بقواعدها ومنظومتها التى نتعامل معها حتى الآن.

كان العرب فى الجاهلية يؤمنون بوجود الجن والعفاريت وكانوا مقتنعين بأنها تخالطهم فى السكن والحل والترحال والأكل والزواج وهناك أشعار جاهلية كثيرة تدل علي ذلك.

وكانوا يؤمنون كذلك بالكهانة والعرافة وبشىء اسمه «الهامة» وهى طائر يشبه البومة يخرج من رأس القتيل ليطالب بالثأر وهو يصيح اسقونى.. اسقونى.

ويقول شاعر جاهلى هو ذو الإصبع العدوانى:

يا عمرو، إلا تدع شَتْمى ومَنْقصتى

أضرِبْك حتى تقولَ الهامةُ: اسقونى

وكان عرب الجاهلية يتشاءمون ويتفاءلون بشدة وإذا خرج أحدهم من داره فوجد شيئًا يدعو إلى التشاؤم عاد إلى الدار وأغلق على نفسه الباب ولا يخرج منها طوال اليوم.

وكانوا يؤمنون بشدة بالحسد ويعوِّذون أطفالهم بسن ثعلب وبسن قط خوفًا من «العين».

كما كانوا يتشاءمون من الغراب كما يقول النابغة الذبيانى:

زعم العواذلُ أن فُرقَتَنا غداً وبذاكَ خبّرنا الغرابُ الأسودُ

وفى هذا المناخ المفعم بالخرافات والخزعبلات نشأت اللغة فعكست إلى حد بعيد تلك المنظومة العقلية الجاهلية.

وقد أطاح الإسلام بالكثير من هذه الخزعبلات وكان دين العقل والحكمة وهناك عشرات الأمثلة على رفض سيدنا محمد ﷺ للخرافات التى كانت سائدة فى عصره.

لكن المشكلة هى أن اللغة مرآة للتركيبة العقلية لمجتمع ما؛ كما أنها تؤثر تأثيرًا حاسمًا فى تشكيل عقل المجتمعات التى تستخدمها.

ضد تحنيط العربية

من يقرأ فى تاريخ الفكر العربى يتضح له أنه زاخر بمحاولات التجديد والتطوير التى وُجدت دائما من يتصدى لها وينجح فى إجهاضها.

ولأنه يجرى على اللغة ما يجرى على باقى شئون الفكر فقد ظهرت فى تاريخ العرب تيارات تدعو للتجديد ورفض الجمود فى مجال اللغة. فعندما تبلورت أفكار المعتزلة فى العصر العباسى ظهر تيار ينادى بتوسيع اللغة عن طريق القياس والتوسع فى الاشتقاق. وكان رافع علم هذه المدرسة أبا على الفارسى وتلميذه ابن جنى. وكان موقفهما من اللغة كما يقول أحمد أمين فى كتاب «ظهر الإسلام» «**موقف أبى حنيفة ومدرسته فى الفقه**». ويضيف أن انتماء أبى على وابن جنى إلى مدرسة الاعتزال مكنهما من التحرر وإخضاع اللغة لحكم العقل.

لكنه كالعادة فى التاريخ العربى الإسلامى فإن التيار المحافظ الذى كان يتزعمه آنذاك فى اللغة أبو سعيد السيرافى نجح فى إجهاض الأفكار الجديدة ووأد محاولة التجديد.

وعبارات فضفاضة فإن التهديد الكلامى يكون عادة عنيفا للغاية ومفزعا بالنسبة للأطفال.

و تلجأ الأمهات إلى الأسلوب العربى اللغوى فى التهويل والمبالغة بأن يهددن أطفالهن بالضرب وربما بالقتل والحرق وقطع الأيدى وغير ذلك، ثم لا ينفذن هذا الوعيد بسبب الرحمة أو الشفقة وحبهن لأطفالهن. ولا شك أن التهديد والوعيد والتخويف هى عمليات تنفيس تقوم بها الأم العربية لكى لا تؤذى طفلها الحبيب. لكن المشكلة أن هذا الأسلوب يترك فى نفوس الأطفال آثارا لا تمحى، وتترسخ فى عقلهم الباطن عادة الكلام الذى يعبر عما فى داخل النفس من رغبات كامنة، لكنه لا يعبر عما ينوى الإنسان أن يقوم به من أفعال (الكلمة بديلا عن الفعل). فالكلام فى واد والواقع فى واد آخر.

وهناك مئات من الأمثلة تؤكد ميل العربى إلى استعواض الأفعال بالكلمات. والشعر العربى منهل لا ينضب لهذه الأمثلة من امرىء القيس إلى يومنا الحالى. فالشعراء الذين يتحدثون عن الفضيلة وأفعالهم تتناقض مع أبسط قواعدها، والشعراء الذين يتحدثون عن القناعة وهم يتكالبون على الحياة، كلهم قد ملأوا سماء الأدب فى القرون الماضية. ربما كانت أشعارهم الجميلة تشفع لهم الفجوة بين كلماتهم وأفعالهم، لكن وقع أشعارهم على النفسية العربية كان سلبيا للغاية.

وكان حسان بن ثابت شاعر الرسول من الأمثلة البارزة على ما نريد أن نثبته. فقد كان حسان أفضل من يتحدث عن الحرب

ومحاولات التجديد فى اللغة والخروج من الإطار الحديدى الذى وضعه النحاة لم تتوقف فى تاريخ العرب على الرغم من وطأة حراس الماضى فى كل العصور. وخلال عصر النهضة فى القرن التاسع عشر واكب التيارات الفكرية الجديدة التى تولدت من الاحتكاك بالخارج، وعى شديد بالحاجة إلى التجديد اللغوى. فقد شعر رواد النهضة مثل الطهطاوى والكواكبى وقاسم أمين بأن اللغة أصبحت عقبة للتعبير عن أفكارهم الجديدة. فقد كان الهاجس الأول لكل هؤلاء هو تطوير العقل العربى ومواءمته مع التطورات العلمية والاجتماعية والاقتصادية والحياتية التى عاشتها المنطقة منذ نهاية القرن التاسع عشر.

ولم يقتصر الأمر على المثقفين. فقد شعرت الدولة نفسها أن الوقت قد حان لإيجاد أداة لغوية مرنة تعكس الواقع الجديد. وفى عام ١٩٣٨ أنشأت وزارة المعارف لجنة مهمتها دراسة سبل تيسير اللغة العربية. وقد عُهد برئاسة اللجنة إلى الدكتور طه حسين، وتقدمت بنتائج دراستها للمجمع اللغوى الذى أقرها فى يناير ١٩٤٥ . وقد تبنى المشروع مؤتمر المجامع اللغوية الثلاثة الذى عقد فى دمشق عام ١٩٥٦ . لكن الأفكار التى طرحتها اللجنة لم تر النور بسبب اعتراض الكثيرين على مبدأ المساس باللغة. من الواضح إذا أن المهمة الصعبة التى سيواجهها العرب هى تبسيط لغة الضاد..

* * *

والمبدأ الأول الذى يجب الاتفاق عليه قبل الخوض فى عملية التطوير هو ضرورة الحفاظ على اللغة الفصحى وعدم استبدال

اللهجات بها. فمن اللازم أن يكون هدف التطوير هو تخليق لغة وسط بدأت تظهر بالفعل من خلال لغة الصحافة وخاصة منذ بداية القرن العشرين. ويجب السير فى هذا الاتجاه ومحاولة إيجاد صيغة تعتبر قاسما مشتركا أعظم بين كل اللهجات العربية.

واعلم أن هذه مهمة صعبة للغاية وتستلزم عشرات السنوات من البحث والتجارب. لكنها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ لغتنا الجميلة من الاندثار.

***

وبعيد عن ذهنى تماما أن أدعو إلى تطوير جذرى يقضى على أسس اللغة العربية. فمثل هذا التطوير يقطعنا عن تراثنا وثقافتنا، وهو مرفوض تماما بالنسبة لى. فنحن العرب أصحاب ثقافة من أهم الثقافات الإنسانية ومن الجنون التفريط فى هذه الكنوز التى تركها لنا السلف.

والمطلوب هو العمل على تطوير اللغة بجرأة لكن دون نسف الأسس التى قامت عليها، والحفاظ على الشكل والقواعد الأساسية التى وضعها السلف. وأعلم أن أى تطوير للغة يمس جوهرها هو خوض فى بحر غريق. لكن عبور هذا البحر هو سبيل الخلاص للعقل العربى وإنقاذه من الحلقة المفرغة التى يدور فيها منذ عدة قرون.

والتطوير الذى أقصده يجب أن يحافظ على أساسيات اللغة بحيث أن من يتعلم العربية بعد التطوير يكون قادرا على فهم ما كتب قبل إجراء عملية التطوير.

لكن كل المؤشرات التى ذكرتها تدل على أن المنظومة اللغوية العربية فى حاجة إلى إعادة نظر شاملة. ولأننى لست عالما لغويا أو نحويا فإننى أكتفى فى هذا الكتاب بإعطاء بعض الأمثلة الملموسة لما أقصده بالتطوير الذى لا يخل بجوهر اللغة. فالغرض هو أن يظل العرب بعد مئات السنين قادرين على قراءة القرآن وفهم التراث تماما كما يفهمونه اليوم.. لا أكثر ولا أقل.

وقد اكتشفت بعد أن وضعت بعض الأمثلة أن ما أقترحه قد جاءت به اللهجات بالسليقة لأنه أقرب إلى المنطق وأبعد عن التعقيد غير المفيد. وقد وصلت من هذا المنطلق إلى قناعة بأن تبسيط اللغة العربية سيكون بتقريبها من المنطق اللغوى للهجات، مما يساعد على تقبل الفصحى من كل أبناء الوطن العربى. وبعد ثلاثة أو أربعة أجيال ستصل نسبة القادرين على القراءة والكتابة إلى ٨٠ وربما إلى ٩٠ ٪. وعندئذ ستزداد الحاجة لإيجاد لغة وسط لكسر حالة الشيزوفرينيا اللغوية التى تحدثنا عنها.

***

ولكى نضع تصورا لكيفية تبسيط اللغة يتعين علينا أن نضع أيدينا على مواطن الصعوبة الكامنة فى العربية.

ومن أبرز المفارقات التى تلفت النظر فى العربية أن الكلمة تأخذ معناها من التشكيل وليس من موقعها فى الجملة. فالأصل فى العربية هى الجملة الفعلية. وإذا قلنا مثلا : ضرب الشاب الرجل. (بدون تشكيل) فإن هذه الجملة التى من المفترض أنها

واضحة، تحتمل معنيين متناقضين لا يمكن التفرقة بينهما إلا بالتشكيل.

فإن كان التشكيل هكذا: «ضرب الشابُ الرجلَ» لكان المعنى أن الشاب قد ضرب الرجل. أما إن كان التشكيل هكذا: «ضرب الشابَ الرجلُ» لكان فى هذه حالة الشاب هو المضروب والرجل هو الذى ضربه.

والجملة فى اللغات الحية الحديثة هى جملة إسمية وليست فعلية. والسبب فى ذلك هو ما تجره الجملة الفعلية من التباس لدى السامع أو القارىء لأن المعنى فيها لا يستنبط من ترتيب الكلمات وإنما من التشكيل. مع أن المنطق يقول إن الفعل لا يأتى إلا بفاعل. فالفاعل هو الذى يسبق الفعل وله أولوية عليه.

وأذكر أن والدى الأستاذ محمد مفيد الشوباشى رحمه الله والذى كان من أفضل من يجيدون العربية فى مصر، كان يغضب منى لكثرة استخدامى للجملة الإسمية، التى كنت أجدها أقرب إلى التعبير عن المعنى الذى أقصده. وكان يتهمنى بالتأثر باللغات الأجنبية التى كنت أجيدها بفضل دراستى. وبرغم امتثالى لنصائح والدى إلا أننى كنت أشعر بالفعل أن الجملة الإسمية أقرب إلى المنطق وإلى التعبير المباشر والسليم عن المعنى المقصود.

الصعوبة الثانية التى تواجه دارس العربية هى النقص الغريب فى حروف العلة. وفى مقابل ذلك، هناك وفرة مشكوك فى ضرورتها فى الحروف الساكنة. وإذا قارنا العربية بالإنجليزية نجد

أن لدينا ثلاثة حروف علة فى مقابل خمسة لديهم، وعندنا ٢٥ حرفًا ساكنًا فى مقابل ٢١ عندهم. وغالبية الكلمات والأفعال فى العربية تتكون من حروف ساكنة فقط، على عكس كل لغات العالم الحديثة. فكلمة مثل «رجل» أو فعل مثل «ضرب» لا يمكن قراءتها إلا بإضافة حروف علة فى عقل وعلى لسان القارىء نسميها التشكيل. فنحن نقول: «را جو لون» و «ضا را با».

ولنتمثل كلمات مشابهة باللغة الإنجليزية. فسنكتب مثلا: rgl وdrb هذه التراكيب هى ضرب من اللامعقول عندهم. لكنها المعقول ذاته بالنسبة لنا. ومن هذه المفارقة جاءت فكرة طه حسين التى ذكرناها من قبل ولم يتقبلها أحد.

وما يضاعف من المشكلة أن كلمة واحدة من الممكن أن تشكل جملة كاملة فى العربية. وهذا ليس موجودا فى غالبية اللغات الأخرى باستثناءات نادرة مثل فعل الأمر. لكن وجود الكلمة - الجملة وضع نحوى عادى فى العربية. فعندما تقول مثلا: «كتبت» فالفعل يحتوى على الفاعل وبالتالى فقد اكتملت أركان الجملة فى عبارة واحدة. وقد يجد البعض ذلك قوة مضافة للعربية. لكن الممارسة تثبت العكس. فلو أخذنا كلمة مثل «قتلت» نجد أن لها عشر دلالات ملتبسة على الأقل، وفقا لنطقها أو لتشكيلها. فهناك «قَتلتُ» و«قَتلتَ» و«قتلتِ» و«قَتلتَ» و«قُتلتُ» و«قُتلتِ» و«قتلَتْ» و«قتّلتْ» و«قتّلتَ» و«قتّلتِ».

فهل من الطبيعى أن تكون لكلمة واحدة تكتب بطريقة واحدة أكثر من عشر دلالات؟ ألا يؤدى هذا إلى فتح باب اللبس والغموض

فى المعنى والحيرة والتأويلات المختلفة ؟ وربما كان ذلك أحد الأسباب وراء الخلافات التقليدية بين أبناء لغة الضاد. فهم أحيانا غير قادرين على الاتفاق على معانى اللغة التى يتحدثون بها فما بالنا بمضمون هذه الكلمات وفحواها ؟

ولا بد لمن يقرأ العربية أن يتمتع بملكة التكهن ودرجة عالية من القدرة على الاستنتاج. بل والرجم بالغيب. فغالبية الأفعال والكلمات تحتمل عدة معان ولا بد للقارىء أن يختار واحدا منها.

وأود قبل الاسترسال فى مقترحاتى أن أعطى نموذجا واضحا لما أعنيه بالتطوير الذى لا يخل باللغة. فالفيصل هنا هو المقدرة على فهم العربية بعد التطوير لمن لا يعرفها قبل تطبيق عملية التطوير. فإذا تقرر جعل الأرقام حيادية أى لا هى مذكرة أو مؤنثة كما هو الحال فى غالبية لغات العالم، فإن من يقرا أو يسمع بعد ذلك جملة بها رقم لن يعجز عن فهمها. فلو استقر الرأى أن تكون الأرقام مذكرة، فقلنا مثلا سبع رجال بدلا من سبعة رجال، لما استعصى فهم ذلك على أى شخص ولو بعد مئات السنين.

وهذا ما أقصده بدقة عن تطوير اللغة دون الانقطاع عن تراثنا.

* * *

والقواعد الخاصة باستخدام الأرقام هى مثال للتعقيد الذى لا داعى له. لماذا لا نقول تسع رجال وتسع نساء بدلا من تسعة رجال وتسع نساء. لماذا لا نوحد الأرقام حتى نوفر على أنفسنا تعقيدات لم تعد تناسب العصر ؟

فالمذيعون فى الإذاعة والتلفزيون يبذلون جهدا جهيدا لقراءة الساعة بالعربية الفصحى بالطريقة السليمة. فيقولون مثلا: الساعة الآن الحادية عشرة وخمس وثلاثون دقيقة.

وهناك مثال يضرب للتعبير عن بلاغة اللغة العربية وثرائها وتميزها عن باقى لغات العالم. لكننى أعتبر هذا المثال دليلا جديدا على ابتعاد العربية عن متطلبات عالم اليوم وانعزالها فى برج عاجى يضاعف من المحنة الثقافية التى يعيشها العالم العربى اليوم.

فيقال إنه لو ذهب رجل إلى آخر وقال له: إنى قاتلٌ ابنَك. فإنه سيجيبه لماذا ؟ وسيحاول أن يثنيه عن قتل ابنه.

أما إذا قال له: إنى قاتلُ ابنِك. فمعنى ذلك أنه قتل ابنه بالفعل وسيكون رد فعل الأب مختلفا تمام الاختلاف.

وواضح طبعا أن الجملتين تكتبان بنفس الحروف بالضبط. والاختلاف الوحيد هو فى التشكيل.

فهل مثل هذا نقطة قوة فى اللغة ؟ أم أنها نقطة ضعف خطيرة لأنها تؤدى إلى الالتباس والغموض دون أن تكتسب اللغة بسببها بلاغة فى التعبير أو قوة فى المعنى.

فالبلاغة تقوم على الوضوح والبعد عن التقعر والتكلف والمبالغة والتضخيم. والبلاغة ليست التلاعب بالألفاظ وإن كان من الممكن أحيانا أن تقوم على ذلك. وقد قيل: البلاغة الإيجاز. ولعل أجمل وصف للبلاغة هو ما قاله الجاحظ: «البلاغة هى التى إن سمعها الجاهل ظن أنه قادر على مثلها».

والبلاغة هى السهل الممتنع التى يتصور أى شخص أنه بسيط وفى متناول اليد. لكن الحقيقة هى أن أصعب شيء هو التوصل إلى أسلوب سهل وجزل عند القراءة، لكنه صعب ومجهد عند التأليف.

ولعل من أبرز أسباب تعقيد العربية ووقوع الغالبية فى شرك الخطأ هو المفعول به. والمشكلة أن المفعول به فى العربية لا يعرف من مكانه فى الجملة، وإنما من إعرابه، وبالتالى من تشكيله.

وأرى أنه من الأقرب إلى المنطق أن نقول مثلا: رأيت رجل طويل يأكل خبز. بدلا من : رأيت رجلا طويلا يأكل خبزا.

والسبب الوحيد الذى يجعلنا نتمسك بالمفعول به (مُنَوَّنًا) هو أننا ورثناه من نحاة العصور السالفة وأصبح مألوفا لآذاننا. لكنه من غير المنطقى أن نقبل هذا السبب ونستكين لثقافة الأذن.

وإذا قلنا : رأيت رجل طويل يأكل خبز، فهل يؤدى هذا للقارىء أو المستمع أى التباس فى المعنى ؟

وبغير مكابرة فإن الغالبية العظمى من العرب يخطئون فى المفعول به عند الكتابة، كما أنهم لا يفهمون معنى بعض الجمل غير المشكلة بسبب ذوبان المفعول به وسط مفردات الجملة حيث أن تركيبة اللغة العربية لا تحدد له مكانًا محسوبًا ومعروفًا سلفًا.

* * *

ومن أوضح الأدلة على معاندة قواعد العربية لسنة التطور تربع المثنى على أصول النحو العربى حتى بداية القرن الحادى والعشرين.

فالمثنى بالنسبة لكل لغات العالم أصبح كالديناصور الذى انقرض من على وجه الأرض. وغالبية اللغات الحية المتداولة اليوم لم يكن بها مثنى أصلا. فهذه الصيغة كانت شائعة فى اللغات السامية القديمة. وقد اختفى مع اختفاء معظمها والغى بصيغته القديمة فى اللغات الباقية حتى اليوم مع عمليات التطوير التى قاموا بها.

وهناك بقايا مثنى تظهر بدرجات متفاوتة فى بعض اللغات السامية الحالية، لكنها لا تصل إلى تعقيد قواعد المثنى فى العربية. فالعبرية مثلا بها كلمات تعبر عن المثنى خاصة الأشياء المزدوجة فى الطبيعة مثل العينين والقدمين واليدين وهكذا، لكن لا تنسب الأفعال فيها للمثنى مثل «شربا» أو «قاما» أو غيرها كما فى العربية. ولا يوجد مثنى للكلمات مثل «رجلان» أو «امرأتان».

ومعنى هذا أن غالبية لغات العالم أدركت أن المفرد والجمع يكفيان تماما للتعبير عن المعنى. وما زاد عن واحد يعتبر ببساطة جمعا سواء أكان اثنين أو مائة أو أكثر. لكن المثنى الذى أصبح غائبا عن كل لغات العالم لا زال محورا هاما للغة العربية حتى بداية القرن الواحد والعشرين.

فما فائدة المثنى ؟ هل يضفى دقة على المعنى ؟ هل يضيف جمالا ؟

لقد أدرك الجميع أنه لا فائدة من المثنى إلا زيادة تعقيد اللغة فهجره الجميع إلا نحن.

صحيح أن المثنى له مكانة فى التراث الشعرى العربى وأن أول كلمة فى أول بيت يذكر فى المعلقات هى فعل مثنى وهو: «قفا» فى معلقة

أمرؤ القيس. وقد استخدم الشعراء المثنى كثيرا مثل «يا خليلى» أو «يا ساقيى» و«بكاؤكما» فى مطلع مرثية ابن الرومى الشهيرة.

وهناك بيت للمتنبى يعتبره الدكتور طه حسين من أجمل الأبيات فى الشعر الغنائى العربى قاطبة كما يقول فى كتابه: «مع المتنبى». والبيت مذكور فى قصيدة هجاء عنيفة ضد كافور نظمها المتنبى عندما هرب من مصر وهو:

يا ساقيى أخمر فى كؤوسكما   أم فى كؤوسكما هم وتسهيد

لكن وجود المثنى فى الأدب القديم لا يعنى أن نحنط اللغة ونرفض التغيير. فهناك تعبيرات وأساليب كثيرة تركناها لأنها أصبحت معرقلة للتفاهم.

ويؤدى المثنى أحيانا إلى اللبس فى المعنى. فإذا كتبنا دون تشكيل: رأيت فلاحين. فمن الممكن أن يكون المتكلم قد رأى اثنين من الفلاحين أو جمعا منهم. كذلك لو قلنا: مصرع عراقيين فى الحرب. فمن الممكن أن يكون المقصود اثنين أو أكثر من ذلك. والتشكيل هو الوسيلة الوحيدة لرفع اللبس فى الكتابة.

وقد تخلصت اللهجات العربية من المثنى تلقائيا وأصبح الاثنان جمعا كما يريد المنطق.

***

ومن المشكلات الأخرى التى تنفر دارسى العربية جمع المؤنث وتصريف الفعل الناتج عنه. فالجمع فى كل لغات العالم المنتشرة

يغطى الكافة وهو محايد لا يخص جنسا دون آخر . لكن لماذا عزل النساء عن الرجال ؟ ألسن بشرا مثلهن مثل الرجال ؟ وقديما قال المتنبى فى رثاء أم سيف الدولة:

ولو كان النساء كمن فقدنا لفضلت النساء على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال

وقد ناقش المجمع اللغوى فى مصر هذه القضية لكنه من الواضح أن أعضاءه استقروا على ضرورة الحفاظ عليه. ولا أدرى إن كان السبب هو تعذيب الطلبة وكل من يستخدم العربية كلغة كتابة ؟

ويعتبر المؤنث من أعقد التركيبات التى لا لزوم لها لفهم المعنى. فلو قلنا : «النساء كلهن أكلن» أو «النساء كلهم أكلوا»، فإن المعنى واضح فى الحالتين. ولن يتصور أحد فى الحالة الثانية أن النساء تحولن بقدرة قادر إلى رجال. وغالبية لغات العالم لا تستخدم تلك التراكيب البالغة التعقيد التى عفا عليها الزمن والتى لا تقدم ولا تؤخر ولا تضيف دقة إلى المعنى.

وحتى فى اللغة المصرية الدارجة نجد أنه لا يوجد فرق بين المذكر والمؤنث إلا للضرورة. فنحن نقول بالفصحى مثلا: الرجال الذين كذا والنساء اللائى كذا .. أما باللهجة الدارجة فيكتفى بتعبير «إللى» عوضا عن الذين واللائى.

***

ومن الدلائل التى تساق للتدليل على ثراء اللغة العربية كثرة عدد الكلمات. ويقول جاك بيرك فى كتابه «العرب» أن أحد علماء اللغة العربية يقدر عدد مصادر الكلمات فى العربية بنحو ١٩٠٠٠ يتكون كل منها من ثلاثة حروف. ومن الممكن وفقا لنفس العالم الذى ينقل عنه بيرك اشتقاق أكثر من مائة كلمة من كل مصدر.

ومعنى هذا بحسبة بسيطة أن عدد كلمات اللغة العربية يصل إلى ما لا يقل عن ١٩٠٠٠٠٠ كلمة.

لكن أبا بكر الزبيدى الذى اختصر كتاب العين للخليل بن أحمد أحصى نحو ٦،٥ مليون كلمة عربية من الثنائى والثلاثى والرباعى والخماسى.

وكل هذه الأرقام تعد فلكية مقارنة بغالبية لغات العالم، فالانجليزية لا يزيد عدد كلماتها عن ٢٥٠ ألف كلمة والفرنسية عن ٣٠٠ ألف كلمة وفقا لقاموس «كنوز اللغة الفرنسية». صحيح أن عدد الكلمات لا يجب كل تصريفات الأفعال، لكن الفارق فى كل الأحوال شاسع بين عدد الكلمات العربية واللغات الأخرى.

والسؤال هو: هل يعكس هذا العدد المهول من الكلمات العربية دقة وقدرة تعبيرية تفوق أى لغة أخرى فى العالم ؟ البعض يرى أنه كلما زادت المعانى، كلما اكتسبت البلاغة أبعادا جديدة حيث يمكن اللعب بالألفاظ والإيحاء دون الإفصاح عن المقصود. لكن التجربة أثبتت على العكس أن هذه الوفرة المتناهية أصبحت تزيد غموض المعانى وتجعل المستمع أو القارىء فى حيرة: أى معنى يستنتجه من

الكلمة ؟ وكلما زادت الاحتمالات ازداد الغموض والالتباس وكثرت التأويلات.

أما بالنسبة للقوة التعبيرية فقد أثبت الشعر العربى أن هذا كان صحيحا فى عصر من العصور. فالشعراء العرب توصلوا إلى قدر من البلاغة تكاد تصل أحيانا إلى حد الإعجاز. وأنا لا أتحدث هنا عن إعجاز القرآن الكريم الذى نزل بالعربية لأنه معروف للجميع. وقد نجح الشعراء فى العصور الذهبية أن يترجموا أفكارا وأحاسيس غاية فى النبل والسمو ربما لم يصل إليها أى شعر فى العالم. لكن الشعر تطور بعد ذلك تطورا ضخما فى أوروبا بعد عصر النهضة وظهر شعراء أبدعوا قصائد بديعة تسمو هى الأخرى إلى السماء السابعة فى عالم الإبداع والجمال.

أما عن الدقة فهذا أمر مشكوك فيه جدا. وإذا كان العلماء العرب قد نجحوا فى الماضى فى التعبير العلمى، فإن العلماء الغربيين قد تفوقوا عليهم بعد ذلك، وأصبحت العربية اليوم تلهث وراء الانجليزية لمواكبة التطور العلمى والتعبير عنه باللغة الدقيقة.

* * *

وكان العرب مولعين بالمترادفات منذ العصر الجاهلى. ففى باب الأسد تقول الموسوعة الإسلامية أن هناك ثلاثة من علماء اللغة العرب قد عددوا ٦٠٠ مرادف لاسم الأسد. والرقم هو «ستمائة» لمن يتصور أن هناك صفرا أو اثنين أضيفا بفعل خطأ مطبعى. وقد قام المستشرق جرونرت بدراسة فى الشعر العربى القديم فأحصى

أكثر من ٤٠٠ اسم مذكور فيها للأسد منها الليث والسبع والغضنفر والهزبر والأسامة والعباس على سبيل المثال لا الحصر.

والجمل له فى العربية ١٦٠ اسما بأنواعه المختلفة. وصحيح أن هناك جملاً بسنمين وآخر بسنم واحدة لكن هذا لا يبرر أن يكون هناك ١٦٠ اسما مختلفا للجمل.

ويروى عن أبى العلاء المعرى وكان كفيفا كما هو معروف أنه داس على قدم رجل عندما دخل أحد مساجد بغداد فى زيارته الوحيدة لها. واستشاط هذا الرجل غضبا وشتم أبا العلاء قائلا: «إلى أين يا كلب». فاكتفى أبو العلاء بأن قال: «**الكلب هو من لا يعرف للكلب سبعين إسما**».

فحتى الكلب كان له عند العرب سبعين إسما على أقل تقدير.

لماذا كل هذه الأسماء ؟ ألا تكفى خمسة أو حتى عشرة مرادفات قد تعكس اختلافات بين أسد وآخر أو جمل وآخر فى اللون أو فى النوع مثلا ؟

وفى الجزء الأول من كتاب «تاريخ أداب اللغة العربية» يتعرض جرجى زيدان للإفراط فى المترادفات. ومن الواضح أنه يراه إيجابيا حيث يقول إن «**كثرة المترادفات فى اللغة العربية وتعدد المعانى فى اللفظ الواحد جعلتها واسعة التعبير وسهلت على اصحابها التسجيع**». وفى هذا المجال يذكر أن للأسد ٣٥٠ أسماً فقط. وأنا أميل إلى تصديق الأرقام التى وردت فى الموسوعة

الإسلامية. ويضيف جرجى زيدان أن للزرافة ٢٥٥ أسما والبئر ١٨٨ أسماً والماء ١٧٠ أسما .

كذلك فللمطر ٦٤ أسماً وللسحاب ٥٠ وللشمس ٢٩ . أما الصفات فهى أيضاً تنعم بنهر المترادفات: فالقصير ١٦٠ لفظاً وللطويل ٩١ لفظاً ويضيف زيدان : «**ونحو ذلك للشجاع والكريم والبخيل مما يضيق المقام عن استيفائه**».

ومن المعروف أن قضية الترادف خلافية فى التراث العربى كما هو الحال بالنسبة لمسائل لا حصر لها.

* * *

ومن عجائب العربية أيضا التعدد المفرط لمعانى اللفظ الواحد خاصة أن بعض الكلمات تحمل معنيين متضادين. فلفظ العجوز، كما يقول زيدان، له ٦٠ معنى ولفظ العين ٣٥ معنى.. وإذا كانت هذه التعددية فى المترادفات كان لها ما يبررها فى الماضى البعيد، فقد تغير الموقف اليوم تغيرا جذريا وأصبح الإنسان يبحث عن الوضوح والوصول إلى المعنى من أقصر طريق ممكن. فالصفات التى كان يفخر بها العرب من أربعة عشر قرنا تحولت اليوم إلى معوقات تشل الناطقين بالعربية وتعجزهم عن مجاراة التقدم.

فالمطلوب من اللغة اليوم هو التعبير المباشر والسريع المتوازى مع إيقاع الحياة وليس «الفزلكة» والاستعراض والبحث عن الغريب من المعانى.

وإذا سلمنا بأن ثراء المترادفات والمدلولات هو معيار قوة اللغة، فإن اللغة الإنجليزية التى تعد اليوم لغة العلم الدقيق والأدب الرفيع، تصبح لغة ضعيفة وركيكة حيث أنه لا توجد للتعبير عن نفس المعنى سوى عدد محدود من المرادفات لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة. لكن الواقع أنها تكفى تماما لتحديد المعنى والدليل على هذا أن الانجليزية هى اليوم لغة العلم والأدب الأولى فى العالم.

ولا شك أن وجود الجذور يعطى للكلمات تجانسا غير موجود فى غالبية لغات العالم. فإذا أخذنا ثلاثة حروف مثل ك ت ب فمن الممكن أن نشتق منهم فعل «كتب» وكلمات «كتاب» و«مكتبة» و«كاتب» و«كتابات» و«كتيب» وكلها لها معان ذات علاقة ببعضها البعض. أما فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية فإن هذه الكلمات لا علاقة لبعضها بالبعض الآخر إلا فيما ندر. وكل كلمة لها جذور مختلفة وتركيبة متباينة. وفى لغات العالم الأخرى يتم إضافة بضعة حروف قبل أو بعد الكلمة لاشتقاق معنى آخر لها.

فبالإنجليزية مثلا :

يظهر appear

يختفى disappear

مظهر appearance.

ولهذا السبب، يطلق على هذه اللغات اسم لغات تركيبية.

ولا أدعى أننى أملك حلا سحريا للانفصام اللغوى الذى يعانى منه العالم العربى. لكننى أقول أن مثل هذا الانفصام لا يمكن أن يدوم إلى الأبد. وأخشى ما أخشاه كما أثبت أن تأتى حلول جذرية تفصل بيننا وبين تراثنا العظيم ويكون حراس الضاد قد وصلوا إلى عكس مقصدهم. فهم يريدون الحفاظ على اللغة كما هى دون تطوير، فتكون النتيجة أن يكون التطوير أكبر كثيرا مما نريده جميعا ويمس جوهر لغتنا الجميلة التى نفخر بها.

* * *

الاستثناء العربى

يتفرد العرب بين شعوب العالم بالالتحام الوثيق بين هويتهم ولغتهم. ويقول جمال حمدان فى كتاب «شخصية مصر» (الوسيط . دراسة فى عبقرية المكان) : **«وإذا كان لابد من مقياس مدرج للعروبة، فليس جنسيا هو، ليس بكمية الدم العربى التى أضيفت، ولكنه كمية اللسان العربى التى استعيرت. بمعنى آخر، مقياس العروبة، مثلما هو أساسها، اللغة لا الجنس».**

والتعريف الشائع للعربى كما قلنا، هو أنه من يتحدث اللغة العربية. لكن هذا التعريف لا ينطبق على أبناء الشعوب الأخرى. فلا يمكن أن يعرف الفرنسى مثلاً بأنه من يتحدث الفرنسية، لأن هناك شعوبًا أخرى فى بلجيكا وسويسرا وكندا وغيرها، لغتها الأم هى الفرنسية. كذلك فالإنجليزى لا يعرف بأنه من يتحدث الإنجليزية وأيضًا الإسبانى والألمانى والروسى وهكذا.

لكن الانتماء إلى العروبة لا يكون إلا باللغة كشرط مسبق للتدليل على الهوية.

ومع بدايات القرن الحادى والعشرين يواجه العرب هجومًا شرسًا يستهدف الأسس الراسخة لثقافتهم الموروثة. ولا شك عندى فى أن الصراع العربى الإسرائيلى يكمن بصفة أساسية وراء محاولات تعديل العقل العربى وتشكيله تشكيلاً جديدًا، بحيث يتقبل السلام بالشروط الإسرائيلية.

فأمريكا، والغرب عامة، يسعون منذ نصف قرن إلى إقناع العرب بضرورة السلام مع الدولة العبرية. ولأن الولايات المتحدة ترفض، أو لا تستطيع، ممارسة أية ضغوط على إسرائيل، فإن الجانب الذى تستطيع إقناعه بالحجة أو بالقوة هو الجانب العربى.

ومنذ كامب ديفيد وقبلها، لجأت واشنطن إلى كافة أشكال الضغوط على الدول العربية التى تعتبرها حليفة لها، وهى دول ترتبط بالفعل بمصالح حيوية مع أمريكا لكن كل «النصائح» والضغوط فشلت فى إقناع العرب بالاستسلام لإرادة إسرائيل والتخلى عن القضية الفلسطينية. أيا كان رأينا فى أسباب ذلك.

وقد أدرك خبراء الغرب أن منبع الرفض الحقيقى ليس الحكام العرب وحدهم، وإنما الشعوب العربية، وأن الأنظمة لا تستطيع حتى لو أرادت أن تقبل بتسوية غير عادلة.

وقد أسهمت حادثة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ فى زيادة الفجوة بين الغرب بزعامة أمريكا من ناحية والعالم العربى من ناحية أخرى. وهنا لم يجد الغرب حلاً إلا فى إعادة تشكيل العقل العربى، ليتواءم مع المنطق الغربى ويخضع لرغبات إسرائيل. وتبلورت شيئًا فشيئًا

فكرة إعادة تشكيل العقل العربى فيما يسمى بمشروع الشرق الأوسط الكبير.

وقد بادرت الشعوب العربية برفض هذا المشروع لأنه من غير المعقول ولا المقبول أن تتدخل إرادات خارجية فى تشكيل عقل الأجيال الصاعدة من أبناء الشعوب العربية.

لكن هل يعنى ذلك أننا لسنا فى حاجة إلى إصلاح ؟

الإجابة فى رأيى أننا اليوم فى أمس الحاجة إلى إعادة النظر فى المنظومة العقلية العربية بكاملها فقد أصبح العرب يعيشون وكأنهم على هامش المجتمع الدولى بسبب انكفائهم على مجموعة من الأفكار المتحجرة التى نستلهمها من ماضينا ولم تعد تجارى زماننا.

* * *

ولعل اللغة العربية هى نموذج واضح ورمز ملموس لتحجر العقل العربى ورفض التغيير من منطلق التمسك بالماضى. فنحن نرفض المساس باللغة العربية بدعوى أنها لغة القرآن لكن الواقع من خلال التحليل الذى أوردته فى هذا الكتاب هو أن تواصل الأجيال المقبلة مع القرآن والدين الإسلامى يمر حتما بتطوير اللغة وتطويعها لمقتضيات العصر. فالتطوير من مصلحة الدين كما أنه من مصلحة الشعوب العربية.

وكما أثبتُّ فى الصفحات السابقة، فإن الدين لعب دورًا حيويًا فى الحفاظ على العربية. وإذا أخذنا مثال مصر فى عصور الحكم

التركى المملوكى منذ الغزو العثمانى وحتى عصر النهضة فى منتصف القرن التاسع عشر، سندرك حقائق عن اللغة ربما لم نفكر فيها من قبل ولنطرح على أنفسنا هذا السؤال : من كان يجيد اللغة العربية الفصحى فى تلك الحقبة ؟

الطبقة الحاكمة كانت تتحدث التركية بصفة أساسية، وكانت هذه اللغة هى لغة التعامل الرسمى والفرمانات والأحكام. أما أبناء الشعب فكانوا يتحدثون اللهجة المصرية الدارجة وكانوا فى غالبيتهم الساحقة لا يعرفون القراءة والكتابة ولا يفهمون الفصحى.

الفئة الوحيدة التى كانت تجيد العربية هى علماء الدين ودارسو أو خريجو الأزهر الشريف. وكان عدد هؤلاء لا يزيد عن بضع مئات تعد على أصابع اليد الواحدة. ولولا هؤلاء لتعرضت العربية فى مصر إلى أخطار حقيقية.

وكما أشرت فى كتاب «الداء العربى» فإنه عندما أصدر الطهطاوى كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» أمر ولى النعم محمد على باشا بترجمته إلى اللغة التركية حتى يستفيد منه الحكام الحقيقيون للبلاد وغالبيتهم العظمى لا يجيدون سوى التركية.

وخلال القرن العشرين، أدت وسائل النقل والاتصالات إلى التقريب بين شعوب العالم وبدأت ترتسم معالم قسمات مشتركة تجمع بين أبناء البشرية بصور متفاوته.

ولا شك أن الحربين العالميتين الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) والثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥)، برغم ضراوتهما البالغة، لعبتا دورًا هامًا فى

التقريب بين شعوب العالم، وفى إيجاد قاسم مشترك أعظم من القيم والمبادىء والمثل تصلح للمجتمعات الإنسانية فى كل مكان.

وحتى قبل الحرب العالمية الأولى، بدأت شعوب العالم تتفق على مبادىء عامة، وتلفظ بعض الممارسات التى كانت مقبولة من الجميع لقرون طويلة. فكان هناك اجماع تحقق تدريجيًا حول إلغاء الرق ونهاية عصر العبيد، وإلغاء التعذيب البدنى الذى كان مباحًا بل ومستحبا فى غالبية مجتمعات العالم؛ كما ظهر اتفاق عام حول ضرورة إعطاء المتهم فرصة الدفاع عن نفسه من خلال محام يترافع عنه أمام المحاكم.

واستقرت هذه المبادىء فى أذهان كافة مجتمعات العالم وأصبح من الصعب على أى مجتمع أن يستثنى نفسه من الالتزام بها.

واليوم تجمع غالبية مجتمعات العالم على مبادىء ومثل تتفق حولها بصفة عامة مثل الديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحرية التعبير، وحرية التجارة، والمساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة، ومساواة جميع المواطنين أمام القانون.

لاشك فى أن الدول الغربية الكبرى كثيرا ما تستغل هذه المبادىء لصالحها وتخرقها عندما تصطدم بمصالحها العظمى، ولا تعبأ باعتراض شعوب العالم التى ترفع صوتها رفضًا للظلم الواقع عليها.

ومع ذلك، فإن رفض هذه المبادىء من أى طرف يعد نوعًا من الخروج على القانون الدولى الذى يتمثل فى الأمم المتحدة

والمنظمات الدولية والعرف الذى أصبح سائدًا فى العلاقات بين الدول المختلفة.

صحيح أن لكل حضارة هويتها الثقافية الخاصة، لكن القاسم المشترك الأعظم في القيم والمبادىء العامة أصبح ظاهرة لا يمكن الفكاك منها فى القرن الحادى والعشرين.

***

فهل يعقل مثلاً أن يذهب عربى إلى طبيب غربى فيعطيه دواء مناسبًا لحالته فيعترض المريض قائلاً : هذا الدواء ينفع أبناء بلدك، لكنه لا ينفعنى لأنى عربى ؟!

للأسف أننا نجد مواقف مشابهة لذلك الموقف العبثى عندما نرفض أفكارًا واردة من الخارج بادعاء أنها تتناقض مع ثقافتنا وديننا.

وإذا اقتصرنا على مجال اللغة وهو موضوع هذا الكتاب فإن التيار الغالب عندنا يقول : كل لغات العالم قابلة للتطوير والإصلاح.. إلا لغتنا العربية. ثم يسوقون حججًا عديدة لتبرير هذا الاستثناء، على رأسها أن العربية لغة القرآن.

وقد سعيت فى صفحات هذا الكتاب أن أثبت كم أنه من مصلحتنا كمسلمين حريصين على ديننا وتراثنا، أن نقوم بتطوير شامل للمنظومة اللغوية العربية ولا يمكن أن تظل العربية ممتنعة عن أى تحديث دونا عن كل لغات العالم الحية.فهذه النظرة التى تستثنى العرب من ممارسة التجارب الناجحة فى العالم هى أهم أسباب تخلف العالم العربى عن ركب الحضارة العالمية.

بالتأكيد أن لنا خصوصيتنا التى لابد أن نقيم لها ألف حساب فنحن قد نقبل حرية المرأة، لكننا لا نقبل الانحلال الخلقى، ونقبل حرية الرأى، لكننا لا نقبل التهجم على الأعراض.

والمشكلة أن البعض عندنا يتذرع بخصوصية الأخلاقيات العربية لرفض حرية المرأة وحرية الرأى بدعوى أنهما تؤديان إلى الانحلال والفوضى وتعارضان قيمنا الدينية. ويغلف هذا الرفض بحجج واهية تنطلى على البعض نظرا لتبجيلنا لديننا الحنيف والتزامنا بقيمه ومبادئه.

والاستثناء العربى له وجود بالفعل على أرض الواقع، فنحن أصحاب ميراث ثقافى يندر أن يتواجد لدى أى حضارة أخرى فى العالم وثقافتنا تعطى أهمية كبرى للروحانيات، والأخلاقيات، والعواطف الإنسانية، والترابط الأسرى، والتراحم وكلها مثل عظيمة توارثناها جيلا بعد جيل، ويكون من الجنون أن نفرط فيها، بل علينا أن نتمسك بهذا الاستثناء الإيجابى الذى يميزنا عن باقى حضارات العالم.

لكن أن يكون الاستثناء العربى هو استثناء من تقبل الديمقراطية ومثل الحرية، وحقوق الإنسان، والمساواة بين الرجل والمرأة، ومساواة الجميع أمام القانون، فهذا استثناء سلبى يجعل من العرب جماعة خارجة على القانون الدولى والأعراف التى اتفقت عليها الإنسانية مع بداية القرن الحادى والعشرين. وقد أصبح واضحًا اليوم أننا لا نستطيع أن نعيش فى جزيرة معزولة اسمها العالم العربى:

ورفضنا لأى تطوير ملموس فى قواعد النحو والصرف العربى هو دليل صارخ على أن فهمنا للاستثناء العربى هو فهم سلبى يعوق أى تقدم للعقل وبالتالى أى تطوير للمجتمعات العربية.

وإذا كان علينا أن نرفض بشدة أن يتحكم أحد فى عقولنا، وأن يملى علينا أسلوب تفكير معين، فإن علينا بنفس القدر أن نرفض من ينادون من بيننا بالتحجر والانغلاق ورفض كل جديد.

فعلى مر عصور الدولة الإسلامية لعب تجار الدين على وتر الإيمان العميق للشعوب العربية وجهلها بتعقيدات اللغة الفصحى، فاستخدموا كلاما مبهما وتعمدوا استخراج أصعب الكلمات والتراكيب اللغوية ليبهروا الناس فيصدقوهم، ويتبعون ما يقولون من منطلق إيمانهم الراسخ بالدين. ولازال البعض فى العالم العربى اليوم يستخدم نفس الأسلوب، عامدين إلى تسييس الدين واستمالة أبناء الشعب البسطاء المسحورين بالكلم.

ونحن نعتبر اللغة من ثوابت العقل العربى التى نفخر بها. والواقع يملى علينا أن نفخر بتراثنا الأدبى والفكرى واللغوى، لكنه يملى علينا أيضا أن ننتفض ثائرين على قواعد النحو والصرف والتعقيدات اللغوية التى تغلق أبواب العقل العربى وتحبسه فى الماضى البعيد، وفيما أملاه السلف من آراء وأفكار لم تعد تناسب العصر الذى نعيش فيه.

لقد تأخرنا أكثر من ألف عام عن إحداث تطوير حقيقى فى اللغة العربية بسبب ميل العقل العربى إلى التمسك بالقديم

وتقديس كلام السلف، فعلينا أن نتدارك دون إبطاء كل هذا الزمن الذى راح هباء وجعل الآخرين يتفوقون علينا ويتحكمون بالتالى فى مصائرنا.

***

ولا يمكن اعتبار اختيار السياسة اللغوية لأى مجتمع على أنه من ثمار الصدفة أو أنه اختيار محايد. فوراء هذا الاختيار سياسة عامة لكل مجتمع تقوم على مفهومه العميق لهويته.

وبالنسبة لنا فى مصر فإن كنا نرى أن مصر للمصريين وحدهم، وأنه علينا أن نقتطع أنفسنا عن الجسد العربى، فإنه من الممكن عندئذ أن نتجه إلى اللهجة المصرية ونعطيها الأولوية. أما إذا كنا مقتنعين بأن مصر جزء من ثقافة أوسع، ومن عالم أكبر هو العالم العربى، فإنه يتعين علينا فى هذه الحالة أن نتمسك باللغة التى تربطنا بجذورنا التاريخية كما تصلنا بامتدادنا الجغرافى الطبيعى.

ولاشك أن هناك من يتربص بعالمنا العربى ويتمنى تقطيع أوصاله وتفكيك الروابط بين أقطاره ومن أقواها اللغة.

فالعالم العربى يكاد يكون كما قلنا الكيان الوحيد الذى يتمرد على إرادة واشنطن وخاصة فى علاقته بأسرائيل. فليس غريبًا أن نسمع من يؤكد أن العالم العربى مجرد خرافة ووهم كبير، وأن نسمع من يطالب بنبذ اللغة العربية وجعل اللهجات هى اللغات القومية الرسمية لبلادنا.

وبالتأكيد أن تجارب الوحدة فشلت وستفشل فى المستقبل المنظور. لكن هذا لا يعنى أنه لا يوجد عالم عربى له مصالح مشتركة ورؤى متقاربة ووجدان متوحد؛ ومن المؤكد أن اللغة العربية هى العنصر الأساسى فى ترابط الوجدان العربى. ولو تركنا هذه اللغة تتحطم فوق صخور عاتية فإننا نهدم فكرة من أهم أفكار القرن العشرين، وهى وجود عالم عربى واحد له صفات وخصائص متميزة عن باقى الكيانات الثقافية.

* * *

وأعلم أن الأفكار الواردة بهذا الكتاب ستكون بمثابة صدمة لبعض الذين اعتادوا السير فى الطرق المعبدة التى مهدها السلف منذ قرون طويلة، ويسير عليها كل من جاء من بعدهم فى حالة استكانة عقلية غريبة.

وأعلم أن بعض من يعتبرون أنفسهم حراس اللغة العربية سينتفضون غضبا من الاقتراحات التى يتضمنها هذا الكتاب. وأعرف مقدما الاتهامات الجاهزة التى ستوجه للأفكار الواردة فى هذه الصفحات فثقتى كبيرة فى نزعة المزايدة واللعب على وتر الدين والتقاليد والموروث وكل القيم التى نؤمن بها جميعا بنفس الدرجة، لكننا نفهمها من منطلقات متباينة.

وأكاد أسمع من يتساءل عن مدى تخصصى فى اللغة العربية وهى الحجة التى يواجه بها كل من يحاول الخروج عن الطرق

المرصوفة والممهدة والتى أجمعت الأجيال الماضية عليها، لكنها مع هذا لم تعد صالحة لجيلنا الحالى وللأجيال القادمة إذ أن اللغة كما يقول عميد الأدب العربى هى ملك لكل من يستخدمها.

ومع كل ذلك، فإننى على ثقة تامة من أنه سيأتى اليوم الذى يضطر فيه العرب إلى تبسيط لغتهم حتى لا تواجه أزمة طاحنة تعرضها للخطر؛ فلماذا لا نبدأ من الآن ؟ ألا تكفى القرون التى ضاعت منا هباءً؟

وكما قلت فقد تمت عملية تطور عشوائية للغة على أيدى المفكرين والمبدعين من مصر والشام وكل البلدان العربية، وخاصة من خلال الصحافة. ولا ينبغى اليوم أن يحدث أى شطط أو قرارات منفردة بالتطوير من أى بلد عربى، أيًا كان. ولا ينبغى أن يتأثر المثقفون وعلماء اللغة بالخلافات السياسية والحزازات بين الحكام فكل هذه الخلافات زائلة. أما اللغة فهى باقية.

فلتنكب الجامعة العربية وذراعها الثقافية المعروفة باسم «أليكسو»، على مهمة تقنين التطوير الواقع، وإعادة النظر فى أسس القواعد والنحو. ولتشكل الجامعة منخبا من المجامع اللغوية الخمس الموجودة بالعالم العربى الآن.

* * *

والمعضلة التى ستواجه الذين يتصدون لمهمة تطوير اللغة تتمثل فى ازدواجية الهدف : الاقتراب من اللغة العامية التى تستخدمها

الشعوب العربية للتفاهم اليومى. وفى الوقت ذاته عدم القطيعة مع اللغة العربية الأصيلة، لغة القرآن ولغة الأدب التى مارسها العرب خلال القرون الماضية.

وفى النهاية فإن كل ما أطلبه من القارىء الكريم هو أن يتمهل قبل أن يصدر حكمه على هذا الكتاب. فما جاء به يسير ضد التيار الغالب، وعكس الموقف الذى اتخذه العرب من لغتهم طوال القرون الماضيـــة. وأفـهم أن يكون رد الفـعل الأول هو الرفض القـــاطع للفرضيات والاقتراحات التى عرضتها فى الصفحات السابقة، فقد اعتدنا على خط تفكير معين تربينا عليه وفطرنا على تقديسه وعدم مراجعته أو حتى مناقشته.

لكننا لو فكرنا بشىء من الموضـوعـيـة لاتضح لنا أنه آن الأوان لإعادة النظر فى مسلمات طالما آذتنا، وأوضاع ثقافية متحجرة هى السبب الحقيقى وراء تعطيل مسيرة التقدم فى العالم العربى بأكمله.

* * *

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨٩٨٤/ ٢٠٠٤

I.S. B. N. 977 - 01 - 9069 - 1



صدر للمؤلف

- ١٩٩٢ كتاب «هل فرنسا عنصرية؟».
- ١٩٩٤ مجموعة قصص قصيرة بعنوان: «الشيخ عبدالله» أخذ عنها «فيلم بطل من الجنوب»
- ١٩٩٥ مسرحية «لن تسقط أورشليم».
- ١٩٩٨ صدرت ترجمة «لن تسقط أورشليم» بالفرنسية عن دار نشر لارمتان مع مقدمة للدكتور بطرس بطرس غالى.
- ١٩٩٨ «نهاية التفكير» دراسة فكرية.
- ٢٠٠٢ «الداء العربى» دراسة فكرية.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب